ماري ستيوارت

الهاوية

دار القلم
بيروت - لبنان

ص. ب. ٣٨٧٤
بيروت – لبنان

الفصل الاول

أربعة على المسرح ...

بدأت سلسلة الأحداث المثيرة بداية هادئة . ذلك اني لم أكن أتوقع قط أن أجد نفسي مقحمة في هذه السلسلة من الأحداث الخطيرة عندما قررت مع صديقتي لويز أن نقوم برحلة – بالسيارة – إلى مقاطعة بروفنس بجنوبي فرنسا . ولما وصلنا بعد ظهر يوم حار إلى مدينة افينون الصغيرة ذات الأسوار العالية ، كنا نشعر بهذا التعب الذي مزج بمشاعر الترقب والأمل في قضاء أيام سعيدة من الراحة والاستجمام .

لم يكن في المساء سحابة واحدة ، ولم يكن على الأسوار القائمة ظلال ، ولم ترمقنا عين رجل غريب فضولي ونحن نقف بالسيارة أمام فندق تستيه – فيدين الذي حجزنا فيه غرفتين لقضاء الجانب الأكبر من رحلتنا .

واذكر اني كنت أترنم بأغنية تعبر عن ابتهاجي وأنا أدخل الفندق بعد أن وضعت السيارة في المرأب « الجراج » . وأذكر أنني شعرت بمزيد من البهجة حين رأيت أن ادارة الفندق خصصت لي غرفة ذات شرفة تطل على الحديقة التي

يجتمع فيهـــا النزلاء لتناول المشروبات أو الوجبات الخفيفة . ولكنني لم أكن أدري عندئذ. أن هذه الشرفة كانت السبب المباشر في سلسلة الأحـــداث التي وجدت نفسي مقحمة فيها بالرغم مني .

على انني لم أكن أدري بطبيعة الحال ما كان يخبئه لي القدر وأنا أفرغ حقيبة سفري بينما كانت صديقتي لويز راقدة على الفراش تدخن سيجارتها في هـــدوء واسترخاء وتقول بصوت حالم :

– أسبوعان .. أسبوعان كاملان من الراحة والطعام والشراب والاستمتاع بأشعة الشمس .

فقلت وأنا أفتح المصراع الخشبي للشرفة :

– ولكنك لم تذكري الفرجة على الآثار الرومانية الكثيرة في هذه المدينة .

فضحكت لويز وقالت :

– لا يا عزيزتي .. انني سأشغل وقتي بالرسم أو بالقراءة .. وإذا أردت أن تذهبي للفرجة على المناطق الأثرية ، فعليك أن تذهبي بمفردك .

ثم أطفأت سيجارتها وعقدت يديها تحت رأسها وتمددت على الفراش. وكانت لويز في مثل سني ، أي في نحو الثلاثين من العمر ، طويلة القامة لفاء ، متوسطة الجمال ، فنانة بطبيعتها .. ولكنها شديدة الكسل . وكانت تـــبرر كسلها بقولها انها تحب أن ترى مواكب الحياة تمر أمامها بدلاً من أن تشترك هي في هذه المواكب فيفوتها رؤية الشيء الكثير منها .

وقالت لويز فجأة :

– انني ، كما تعلمين ، لا أكاد أطيق رؤية الآثار أو الخرائب أو الحديث عن التاريخ .. يكفي أن أعيش حياتي بينها ..

وفهمت ماذا كانت تعني .. فقد كنت أنا – قبل زواجي من جوني سيلبورن – أعمل معها بالتدريس في مدرسة بنات خاصة . وكانت هي مدرسة للرسم والمواد الاجتماعية بما فيها التاريخ والجغرافيا .. وكنت أنا مدرسة للرياضة .

وكان طبيعياً أن تحاول المدرسة التي تدرس التاريخ كل يوم ، أن تهرب من هذا التاريخ بقدر ما تستطيع أثناء اجازتها السنوية .

وأدارت لويز رأسها الذهبي الشعر وقالت فجأة :

– ما أسعدك يا شاريتي ! لقد نفضت يديك من هذه المهنة الشاقة بعد أن أصبحت في غير حاجة الى مرتبها !

ولم أجب عليها .. وإنما نظرت بهدوء إلى صورة زوجي الراحل – جوني – حين رأيتها في الحقيبة ، ثم هززت كتفي ، وتناولت ثوباً وبسطته لأضعه في خزانة الملابس .

وأسرعت لويز تقول وقد أدركت من صمتي انها أخطأت في تلك العبارة :

– أوه .. شاريتي .. انني آسفة لقد نسيت . ما أغباني . أرجوك ن تصفحي عني .

– لا عليك يا عزيزتي لويز . لقد نسيت كل شيء .

– أحقاً ؟ !

– نعم .. لقد مضت مـــدة طويلة على وفاته .. ومن الحماقة أن يفسد الانسان حياته لأنه فقد عزيزاً عليه .. انني سعيدة الحظ كما قلت .. حقاً ..

ثم ابتسمت وأردفت قائلة :

– فأنا الآن أرملة .. شابة .. واسعة الثراء .. أنظري إلى هذه الملابس !

وهتفت لويز قائلة :

– ما أجملها ! ان مجرد لمسها يثير في النفس احساساً بالمتعة والجمال !

وبعد لحظات من الحديث الخفيف ، دلفت لويز إلى غرفتها ، وعمدت أنا إلى الحمام فاغتسلت وتجملت وارتديت ملابس بعـــد الظهر ووقفت برهة في باب الشرفة أتأمل حديقة الفندق .. وكانت خالية في ذلك الوقت إلا من قطة كبيرة رمادية اللون .. وكانت الموائد الصغيرة الأنيقة متناثرة في الحديقة التي تتخللها ممرات من الحصباء ، ويدور حولها سياج من النباتات المتسلقة يخفيها عن عيون الفضوليين في الخارج .

وجلست بالقرب من باب الشرفة أفكر فـــيما سأفعله في اليوم التالي ، وفي الأماكن التي سأبدأ بزيارتها .

وفكرت في قنطرة افينون المتأرجحة التي لا يسمح لأحـــد بالوقوف عليها والتأرجح فوقها إلا إذا دفع ما يقابل ثمن تذكرة الدخول . وهناك أيضاً أسوار المدينة .. والكتدرائية ، وقصر البابا .. و .. وقررت أن أقضي اليوم الثاني حيثما تقودني قدماي في المناطق الأثرية .. أما بعد ذلك .. وهنا تدخل القدر وابتسم ساخراً من أفكاري ، وإذا أنا أفيق منها على زمجرة كلب أعقبها اندفاع القطة الرمادية إلى الشرفة ، فتراجعت في انزعاج ، ثم اذا القطـــة تثب الى شجرة قريبة من الشرفة ، وتربض عليها وهي تنظر في هدوء ، ولا مبالاة إلى

كلب ضخم من نوع « الوولف » كان يحاول أن يتخلص من قبضة صبي في نحو الثالثة عشرة من عمره ، لكي يستأنف مطاردة القطة .

وفيما كان الكلب يشد الرباط الجلدي متواثباً في كل اتجاه اذا بـــه يتراجع فجأة ويصطدم بالصبي الذي كان مستميتاً في كبح جماحـــه ، ثم اذا الاثنان يصطدمان باحدى الموائد الصغيرة فتنقلب على جانبها .

ومن حسن الحظ انها لم تكن من الموائد التي أعدت لوجبة العشاء .

وأخذ الصبي يبذل جهده ليعيد المائدة -- الحديدية -- إلى مكانها . وقبل أن ينجح في محاولته اصطدم به الكلب مرة أخرى ، فسقطت المائدة من يديه للمرة الثانية . وقال الصبي للكلب في عتاب ويأس :

— أوه .. روميل !!

ورفع رأسه فجأة ، فرآني .. واضطرم وجهه وهو يقول بالفرنسية :

— انني آسف .. أرجو ألا نكون قد أزعجناك يا آنسة .

وابتسمت وقلت له بفرنسية ركيكة :

— أخشى أن تكون فرنسيتي ضعيفة .. هل يمكنك التحدث بالانجليزية سيدي ؟

وانبسطت أسارير وجهه بالرضى وقال :

— انني انجليزي يا سيدتي .. أوه ! روميل .. كفى !

ثم شدد قبضته على الرباط الجلدي المثبت في طوقه .. وأردف قائلاً :

– أرجو ألا يكون قد أصاب هـــذه القطة بسوء .. انني شديد الأسف لما حدث .

فنظرت إلى القطة وقلت بابتسام :

– يبدو انها على أحسن حال .

– آه .. حسناً .. هل حضرت إلى الفندق الآن يا سيدتي ؟

– نعم .. منذ الساعة الرابعة بعد الظهر .

– اذن فأنت لم ترى بعد الكثير من مدينة أفيتون .. انهـــا مدينة صغيرة .. طريفة .

– الواقع ان ما رأيته فيها حتى الآن أعجبني .. وأنت ؟ !

وكان حديثنا هذا بطبيعة الحال عادياً بسيطاً كأي حديث يمكن أن يدور بين نزيلين في فندق واحد .. ورغم بساطة سؤالي فقد أخـــذ يفكر قبل أن يجيب . وكان كما قلت صبياً في نحـــو الثالثة عشرة من عمره ، يرتدي قميصاً وبنطلوناً قصيراً ، وينم وجهه عن الذكاء ، ولكن بدا لي في تلك اللحظة أن هناك وراء ملامح الوجه الهادئة ما يعرف بالشيء الغامض .

وقال الصبي في النهاية :

– آه ! نعم . انني معجب بهذه المدينة أيضاً . ولكن يبدو أن روميل له رأي آخر .. ان الجو هنا حار .. أتحبين الجو الحار يا سيدتي ؟

وهكذا عدنا الى الحديث العادي البسيط الذي يدور عادة بين نزلاء فندق واحد .

وقال في أثناء الحديث :

– قيل ان سيدتين انجليزيتين ستنزلان اليوم في هذا الفندق هل أنت احداهما يا سيدتي ؟ المسز سيلبورن .. والمس كراي .

فابتسمت وقلت :

– ألمس كراي .. لويز كراي .. وأنا المسز سيلبورن .

– أوه .. معذرة .. انني لا أحسن تذكر الأسماء . ولكنني أتذكر اسمك جيداً بعد أن قرأت كتاب جيلبرت هوايت .

وأدركت أنه يعني كتاب « تاريخ مدينة سيلبورن » للكاتب جيلبرت هوايت .. الا اني لم أكن أتوقع أن يقرأ صبي في مثل هذه المرحلة من العمر كتاباً من هذا الطراز .

وقال بعد برهة صمت :

– ان اسمي دافيد .. دافيد شيللي .

فابتسمت مرة أخرى وقلت :

– ان من السهل أن يتذكر الانسان اسمك .. ولكن لا تغضب إذا نسيت وناديتك باسم دافيد بايرون أو ..

وتوقفت فجأة عن اتمام العبارة حين رأيت سحابة من الحزن تغلف وجه

الصبي وتطفىء الابتسامة على شفتيه . وأدركت انني أخطأت في حديثي معه على هذا النحو . وقبل أن أعرف نوع هذا الخطأ ، أقبلت سيدة من الشارع الى الحديقة وتقدمت نحو دافيد .. كانت سيدة رائعة الجمال في الخامسة والثلاثين من عمرها تقريباً ، شقراء ، طويلة القامة ، في ثوب أبيض لم أر في حياتي أجمل منه .. وكان الواضح انه من روائع مصمم الأزياء العالمي كرستيان ديور ، وبما اني امرأة ، فقد لاحظت على الفور الخاتم الماسي الثمين الذي كان يزين أصبعها ويساوي ثروة كاملة .

ولم ترني وهي تتقدم نحو الصبي . ولما وقفت أمامه بجوار المائدة المنقلبة ، قالت له بصوت جميل وبلغة انجليزية سليمة ذات لكنة فرنسية :

– دافيد ..

ولم يجب .. فعادت تقول :

– يا بني .. !

ابنها ! ومع ذلك فانه لم يرفع عينيه إليها ، الا إنها استطردت قائلة :

– ألا تعرف في أي وقت نحن الآن ؟ أوه .. ماذا حدث لهذه المائدة ؟

فقال « دافيد » بشيء من الخشونة وهو يشيح بوجهه عنها :

– قلبها روميل .

ولم تحفل هي بسلوكه نحوها ، وانما قالت في هدوء :

– حسناً .. أعدها الى مكانها ، وأسرع لتغيير ملابسك يا بني ان الوقت قد حان لتناول العشاء المبكر ، أين كنت طيلة اليوم ؟

– بالقرب من النهر .

– أوه ! كيف استطعت أن ..

ثم هزت كتفيها وضحكت بطريقة أكدت جنسيتها الفرنسية ، ثم تناولت من حقيبة يدها سيجارة وأشعلتها قائلة :

– حسناً .. أعد المائدة إلى مكانها يا طفلي .

وقال الصبي في غير مبالاة :

– انني لا أستطيع ..

وهنا سمع الاثنان صوتاً هادئاً يقول :

-- اسمحي لي يا سيدتي ..

وكان المتحدث رجلاً أقبل بهدوء من داخل الفندق .. وكان وسيماً إلى حد يسترعي الأنظار . كما كانت تصرفاته وملابسه ونبرات صوته تنم كلها على انه فرنسي صميم ، ولشد ما كان عجبي حين رأيت السيدة تلقي عليه نظرة عابرة بعد أن شكرته بعبارة موجزة .

وابتسم الرجل لدافيد ، وأعاد المائدة إلى مكانها بسهولة ، وراح ينفض يديه ، وقال له دافيد :

– شكراً يا سيدي .

وقال الرجل :

ـ لا داعي للشكر يا بني .

ثم انحنى محيياً السيدة الجميلة ، ومضى إلى مائدة في ركن الحديقة ، وجلس إليها ، وقالت السيدة لدافيد :

ـ إذا أسرعت يمكنك أن تأخذ حماماً قبلي .

وسار الصبي إلى الفندق دون أن يقول شيئاً . وألقت هي نظرة طويـــلة عليه ، ثم هزت كتفيها ، وتبعته .

وبعد أن ظللت واقفة برهة أفكر فـــيما رأيت وسمعت ، هزيت كتفي بدوري وقد أدركت أن هذا كله لا يهمني في شيء ، ثم تناولت حقيبة يدي ، وهبطت الى الحديقة لأتناول شراباً مرطباً . وما أن جلست إلى إحدى الموائد حتى لاحظت أن الحديقة بدأت تمتلىء تدريجياً بنزلاء الفندق . ولم تكن صديقتي لويز قد هبطت بعد ، ومن ثم جلست بمفردي أتسلى بهذه اللعبة التي يمارسها عادة الانسان الهادىء البال ، الراضي عن نفسه ، الواثق بأنه خبير بالنفس البشرية .. وأعني بها لعبة محاولة التعرف على جنسية الأشخاص الجالسين حولك في مكان عام من دراسة ملابسهم وحركاتهم وأسلوبهم في الحديث .

ولم أكن أدري وأنا أتسلى بهذه اللعبة البريئة أنني أكثر من اقحام نفسي في سلسلة الأحداث الخطيرة التي كانت تتربص بي ! .

الفصل الثاني

ثرثرة في المقهى ...

كان الواضح ان الرجلين الجالسين الى المائدة المجاورة المانيان ولم يكن الأمر يحتاج الى براعة خاصة لمعرفة جنسيتها بعد أن سمعت احدهما البدين يقول للآخر النحيل عبارة باللغة الألمانية .

وعن كثب منهما كان ثمة اثنان آخران .. شاب وفتاة .. وكان الواضح انهما يقضيان شهر العسل .. لأنهما كانا مستغرقين في حديث هامس وقبلات ناعمة .. وكأنهما يعيشان في عالم من الأحلام ليس فيه أحد غيرهما . وكان الواضح أيضاً أنهما أمريكيان .

في ركن الحديقة جلس ذلك الفرنسي الوسيم بمفرده يحتسي كأساً من الخمر .. وبالقرب من سياج الحديقة جلس رجل آخر يقرأ كتاباً ويشرب – في حذر – شراباً أخضر اللون وتحيرت في معرفة جنسيته برهة حتى لمحت اسم الكتاب « الرباعيات » للشاعر الناقد . ت . س . اليوت . ومن ثم أدركت انه انجليزي صميم .

وأما الجالسون إلى مائدتين أخريين ، فلم أستطع أن أعرف جنسياتهم .

وفي تلك اللحظة أقبلت صديقتي لويز وجلست قائلة في ضيق :

– لقد عطلتني عن الهبوط رئيسة الخادمات .. لقد أبت الا أن تخبرني بتاريخ ومهن وجنسيات النزلاء جميعاً .. وفي نفس الوقت كانت تحاول جاهدة أن تعرف كل شيء عني وعنك .

وراحت تحسو كأس شرابها على مهل وتتلفت حولها في حذر قائلة :

– آه .. لا بد أن ذلك الفرنسي الوسيم الجالس في ركن الحديقة هو المسيو بول فاري . لقد قالت المدام عنه انه جميل إلى حد يجعل بعض النساء ينتحرن من أجله، وقالت انه جاء من باريس .. وانه يشتغل بتجارة التحف والعاديات .

فابتسمت قائلة برنة تهكم خفيفة :

– شيء مثير !

واستطردت لويز قائلة :

– أما ذلك الآخر الجالس وحيداً ومعه الكتاب فهو انجليزي . ناظر مدرسة اسمه جون مارزدن .

– ترى أي كتاب يقرؤه ؟

– الرباعيات للشاعر ت . س . اليوت .

فهزت لويز كتفيها في استخفاف لأنها كانت من الأشخاص الذين يؤمنون بأن الانسان يمكن أن يعيش بغير شعر دون أن ينقصه شيء ..

وقلت لها مشيرة إلى العروسين :

ـ أعتقد ان هذين العروسين أمريكيان .

ـ آه .. نعم .. انها المستر والمسز كورنل . أمـــا الوالدان الجالسان تحت الشجرة هناك مع ابنتها فهما من نيوكاسل .. اسكتلاندا .

ـ اسكتلاندا ؟ ..

ـ نعم .. هذا ما أكدته لي المدام . ان الابنة جميلة .. أليس كذلك ؟

ونظرت بحذر إلى تلك الأسرة .. ولم يكن في الوالدين ما يلفت النظر أكثر من اعجابهما الشديد الواضح بابنتهما الشابة . وكانت الابنة في نحـــو العشرين من عمرها . مسرفة في تجميل وجهها ، وقد أسدلت خصلة كبيرة من شعرها الناعم على جبينها وارتدت ملابسها على طريقة ممثلات هوليوود . الطريقة التي تجعل الجسم يبدو مكتسياً عارياً في وقت واحد .. وكان الواضح من نظراتها أنهـــا تريد أن تصيب أو تغزو بشحنات جاذبيتها شخصاً معيناً .. ومن ثم قالت لويز :

ـ انها تصوب سهامها الفتاكة إلى صاحبنا الفرنسي الوسيم .

ونظرت نحو المسيو بول فاري الذي بـــدا أنه لا يكاد يشعر بوجود الفتاة الجذابة في ذلك المكان . ذلك انه كان مقطب الجبين ، يحرك كأسه على سطح المائدة كأنما يرسم شيئاً يشغله عن العالم كله .

وقلت :

ـ يبدو أنها تضيع وقتها على غير جدوى .

وفي تلك اللحظة رفع عينيه فجأة وكأنما سمعني ، وان كان ذلك مستحيلاً ،

والتقت عيناه بعيني في نظرة طويلة ، ولم يلبث أن رفـــع كأسه وهو لا يزال مركزاً نظراته على وجهي وراح يشرب متمهلاً .. وحولت نظراتي عنـــه وأنا أرجو ألا يكون وجهي قد احمر اضطراباً .

وقالت لويز بلهجة لها دلالتها وهي تبتسم لي :

– حقاً انها تضيع وقتها معه .. لأنه يراك أكثر جاذبية .. وجمالاً منها .

فقلت وأنا أحاول أن أبدو جادة :

– لا تكوني خيالية أكثر مما ينبغي . ولا تنسي أننا هنا في بروفنسي .. في المقاطعة التي نظرت فيها المرأة إلى رجل فمعناها أنها تريد التعرف به .

فقالت لويز في هدوء :

– حسناً .. هذا على كل حال ما قالته المدام لي . وأعتقد أن الجماعـــة الأخيرة من السويسريين ، أما النزيلة الأخيرة هنا .. أعني السيدة التي حدثتني عنها المدام في النهاية ، فهي المسز بريستول ، وهي امـــا مطلقة أو أرملة .. آه .. هل نطلب مزيداً من الشراب ؟

وفي تلك اللحظة خرجت من باب الفندق إلى الحديقة السيدة الشقراء الرائعة الجمال وسارت بين الموائد حيث جلست إلى مائدة لا تبعد كثيراً عن مائـــدة المستر مارزدن . وجلست واضعة ساقاً على ساق ، وتناولت سيجارة وابتسمت للنادل كأنما تطلب منه أن يشعلها .. وهنا أسرعت أيدي ثلاثة رجال لاشعال السيجارة . الالماني البدين ، والنادل ، والمستر مارزدن ، وكان الالماني أسبق من النادل . ولكن قداحته « ولاعته » لم تشتعل .. وهكذا فـــاز المستر مارزدن – الذي استعمل الثقاب – بشرف اشعال سيجارة الحسناء الفاتنة .

وعاد إلى مـائدته ، وتناول الكتاب – مقلوباً – وتظاهر بالقراءة .

وقالت لويز وهي مبهورة بجمال المرأة :

– يبدو أن هذه المسز بريستول .

وكدت أصحح معلوماتها قائلة :

– ان هذه السيدة فرنسية .

ولكن النادل كان يقول لها – للسيدة – في تلك اللحظة :

– سآتي بالشراب حالاً يا مسز بريستول .

وتراخت في مقعدها تدخن في هـــدوء .. ولكن كان في عينيها الزرقاوين الواسعتين ما ينم عن الاضطراب أو الارتباك أو القلق . وقد ازداد هذا كله حين أقبل دافيد من داخل الفندق متجهاً نحوها . وفيما هو يمر أمـــام مائدتي – وكان النادل يتقدمه حاملاً الشراب إلى السيدة – نظر الصبي إلي وابتسم في سرعة ، ثم اختفت ابتسامته وحلت مكانهـــا امارات القتامة والتقطيب وهو يجلس أمام السيدة التي أخذت تنظر بعين الرضا إلى ملابسه النظيفة وتقول له شيئاً دون أن يجيب عليها .

وأخذ المكان يمتلىء في سرعة . وقالت لويز :

– هل سبق أن التقيت بهذا الصبي من قبل ؟

فقلت لها :

– انني تبادلت معه حديثاً عابراً قبل لحظات .

وخامرني فجأة احساس ـ ليس ما يبرره ـ بعدم الرغبة في الحديث عن ذلك الصبي . ومن ثم تنهدت في ارتياح عندما حولت لويز مجرى الحديث الى اتجاه آخر .

وفيما نحن نتناول العشاء ـ الذي كان شهياً متقن الصنع ـ أخذت أفكر في علاقة ذلك الصبي بتلك السيدة . كان انجليزياً كما قال لي . وكانت هي فرنسية تماماً رغم اسمها ثم ذلك الكلب الضخم .. وتلك الامارات التي تنم عن القلق في وجه السيدة ، وعن الحزن أو الألم أو التمرد في وجه الصبي .

وبعد العشاء، قالت لويزا أنها ستبقى جالسة تقرأ وتشرب القهوة والمرطبات حتى يحين موعد النوم . ومن ثم تركتها ومضيت لاستكشاف مدينة أفينون .

ان أفينون مدينة مسورة كما سبق أن ذكرت . مدينة صغيرة يحف بها نهر الرون من الشمال والغرب ، وتحيط بها مجموعة من قلاع العصور الوسطى .. ويشرف على المدينة من الشمال جبل متوسط الارتفاع يسمى روشيردي دوم تقوم فوقه كتدرائية نوتردام وتكسو سفوحه أشجار الصنوبر . وبالقرب من الكتدرائية كان يقوم قصر البابوات السابقين .

وكان يقسم المدينة نصفين شارع رئيسي يسمى شارع دي لاريبابليك ، يمتد من البوابة الرئيسية إلى ميدانها الذي يتوسطها ثم إلى منطقة القصور « بليادي باليه » الواقعة في سفوح جبال روشيردي دوم .

على ان هذا كله لم أكتشفه في تلك الليلة ، وانما اكتفيت بالسير في الشارع الرئيسي المتوهج بأضواء المتاجر والمشارب وكانت المتاجر تعرض من السلع الجميلة ما يسيل له لعاب السائحين من كل مكان . ووصلت الميدان ، فاذا هو مجموعة من المقاهي والمشارب تدور حوله ، ويجتمع فيها كل سكان المدينه تقريباً يشربون ويتبادلون الأحاديث ويلعبون الورق .

وجلست إلى مقهى أستريح وأتناول بعض المرطبات ، ولكنني فوجئت بصوت سيدة تقول لي من مائدة مجاورة :

- معذرة ! لم أرك في الفندق هذا المساء !

والتفت ، فوجدت الأم الاسكتلاندية ، تبتسم لي من مائدة مجاورة ، ثم تردف قائلة :

- انني المسز بالمر . أرجو ألا أزعجك بالحديث ! لقد رأيتك هذا المساء أثناء العشاء في حديقة الفندق .

فابتسمت وقلت وأنا أحمل قدح الشراب وأجلس إلى مائدتها .

- يسرني الحديث معك يا مسز بالمر .. ان اسمي شاريتي سيلبورن .

وأفسحت مكاناً بجوارها وقالت :

- ان كاري وأباها يتمشيان في المدينة قليلاً .. وربما يطول قبل عودتها .

- ان الوقت يبدو أطول عندما يجلس الانسان وحيداً في الانتظار .

فأشرق وجهها وكأني قلت شيئاً رائعاً ثم قالت :

- هذا هو شعوري بالتحديد .. تصوري .. وان الشعور بالوحشية يزداد عندما يكون الانسان في بلد غريب .

فلما أومأت برأسي استطردت قائلة :

- ان الانسان في بلده يجد الكثيرين من الناس الذين يمكنه التحدث إليهم في مثل هذه الظروف .

ثم حولت مجرى الحديث إلى ابنتها كارول ـ التي تدللها باسم كاري ـ وإلى شغفها بتقليد الممثلات ، وفجأة قالت :

ـ ومع ذلك فالممثلات لا يظهرن في الظروف العادية بمظهر غير عادي .. مثل هذه المسكينة المسز بريستول .. أعني عندما كانت ممثلة معروفة قبل أن تقع مأساتها .

فقلت باهتمام وفضول :

ـ مأساتها ؟ !

ـ أوه .. ألم تسمعي بمأساتها ؟ لقد عرفتها من اللحظة الأولى بسبب ما نشر من صورها في صحف ومجلات الأحد .. أعني قبل تلك المأساة الرهيبة .

ـ وما هي هذه المأساة يا مسز بالمر ؟

ـ أوه .. لقد تزوجت هذه المسكينة من رجل انجليزي يدعى ريتشارد بايرون ، انه والد ذلك الصبي الذي يقيم معها الآن .. والده من زوجة سابقة طبعاً .. وبعد الزواج بأسابيع قليلة اتهم ريتشارد بقتل أعز صديق له بسبب وجود علاقة ـ كما قال ـ بين ذلك الصديق وبين الزوجة .. ولكن المحاكم الانجليزية أصدرت الحكم ببراءة الزوج لعدم كفاية الأدلة .

ـ ومتى كان هذا !

ـ في أبريل الماضي .. وكان طبيعياً أن تنفصل الزوجة عن زوجها رغم تبرئة المحاكم له ، وأن تأخذ معها الصبي دافيد ! .

ـ لماذا ما دامت ليست أمه !

ـ لم يكن في مقدورها أن تترك الصبي مع والد بدت عليه أعراض الجنون !

ـ الجنون ! .

ـ نعم .. وإلا كيف طاوعه قلبه في ليلة الجريمـــة أن يضرب الصبي على رأسه ضربة جعلته يسقط مغشياً عليه في الحمام عندما نهض الصبي من فراشه وذهب إلى الحمام بعد منتصف الليل .

ـ وهل قال الصبي أن والده هو الذي ضربه على رأسه !

ـ لا طبعاً .. قال فقط أنه لم ير الذي ضربه فجأة ..

ـ ولكن ألا يمكن أن يكون الوالد بريئاً لا سيما بعد صدور الحكم ببراءته !

ـ لا لا .. إذا كان هو بريئاً فمن يكون المذنب !

وقبل ان أقول شيئاً ، أردفت المسز بالمر قائلة وهي تشير الى زوجها وابنتها اللذين كانا يقتربان منهما :

ـ آه .. ها هما الوالد والابنة .. يجب ان أسرع لمقابلتهمـــا .. آه .. لا تحزني كثيراً من أجل المسز بريستول والصبي .. انها طلقت من ذلك الرجل ولم يعد في مقدوره ان يفعل معها شيئاً .. أما الصبي فسوف ينسى المأساة مع مرور الزمن .

فقلت مسرعة :

ـ انني سعيدة اذ أخبرتني بهذا كله حتى لا اخطىء فأقول شيئاً يزيد من ألم الصبي .. انني لم أكن أعرف شيئاً من هذا كله .

ثم أردفت قائلة في عجب :

ـ ولكن .. لماذا تسمي نفسها المسز بريستول ؟

فهزت المسز بالمر كتفيها وقالت :

ـ حتى تخفي شخصيتها عن الذين سمعوا أو قرأوا عن هذه المأساة .

وانطلقت المسز بالمر الى الميدان لمقابلة زوجها وابنتها .

وبقيت أنا جالسة لا أكاد أشعر بشيء مما يدور حولي .

الفصل الثالث

همسات في الليل

كان الجو في العاشرة من صباح اليوم التالي حاراً الى حد ما ولكن الهواء كان لطيفاً منعشاً . وقالت لويز لي انها سوف تمضي فترة الصباح مع أدوات الرسم في مدخل الحديقة العامة القريبة من الفندق ، وازدفت قائلة :

ـ اذهبي أنت لتكشفاتك السياحية ، وسأبقى أنا مع أدوات الرسم وأقداح شراب العنب المثلج .

وركبت أنا سيارتي « الرايلي » وانطلقت بها الى خارج المدينة ، ومضيت على ضفة الرون استمتع بالمناظر الطبيعية حتى وصلت الى أقرب مكان من القنطرة التاريخية المتأرجحة .

وما كدت أوقف السيارة وأخرج منها حتى رأيت الصبي دافيد يلعب على الرمال تحت القنطرة مع كلبه الضخم روميل ، وما ان رآني حتى هتف قائلاً وهو يلوح بيده :

ـ هل ستصعدين الى القنطرة ؟

ـ ربما .. هل صعدت أنت اليها !

ـ لا .. ليس معي نقود .

ـ حسناً .. تعال لنصعد معاً ..

ـ انني لم أكن أقصد هذا ، ولكنني أشكرك على كل حال .

وصعدنا الى القنطرة حيث تأرجحنـــا قليلاً ، ثم جلسنا نستريح ونغني معاً احدى الاغنيات الخاصة بمدينة أفينون « على مشارف أفينون الجميلة » وأخيراً هبطنا الى الطريق حيث كرر دافيد الشكر لي عندما عرضت عليه ان أحمله مع الكلب في السيارة الى الفندق .

وفي أثناء الطريق غمرني احساس بالعطف الشديد على هذا الصبي المحروم من حنان الوالدين ، والذي لا يجد له رفيقاً يؤنسه إلا كلبه .. ومن ثم قلت له :

ـ كيف تقضي أوقات فراغك يا دافيد ؟ !

ـ أقضي معظمها على الشاطىء الرملي للنهر .. وأحياناً أسبح تحت القنطرة في المنطقة الخالية من التيارات .

ـ ألم تر المناطق السياحية بالمنطقة مثل بودي جارد ، وساحة تيمز لمصارعة الثيران وغير ذلك ؟ أم لعلك لا تهتم بمثل هذه الاشياء .

ـ أوه .. انني أتمنى أن أرى ساحة تيمز .. انها تاريخية منذ عهد أباطرة الرومان ، وهي نفس الساحة التي كانوا يلقون فيها بالعبيد الى الحيوانات المفترسة

أما اليوم فانهم يقيمون فيها مباريات لمصارعة الثيران كل يوم أحد .. وقـــد سمعت أن بين المصارعين سيدة .

فقلت له :

ـ انني لا أحب رؤية هذه الرياضة الوحشية .. ولكنني سأذهب للفرجة على الساحة غداً ويمكنك ان تأتي معي اذا شئت .. واذا وافقت والدتك .

فقال دافيد بلهجة تأكيد :

ـ زوجة أبي .

ثم أردف قائلا وهو يرمقني بنظرة جانبية :

ـ وهذا هو سبب اختلاف اسمينا .

ـ آه .. فهمت .. ولكن أتراها تقبل ذهابك معي اذا أردت أن تذهب ؟

وفكر الصبي برهة ثم هز كتفيه في النهاية وقال :

انني أتوق الى الذهاب معك .. ولا أظن أن زوجة أبي تعارض في هذا .. انها لا تهتم كثيراً بالطريقة التي أمضي بها أوقاتي هنا .

ولما وصلنا الى الفندق ، وجدنا المسز بريستول جالسة الى مائدتها في الحديقة فاستقبلتنا بابتسامة رقيقة ودعتني للجلوس معها ، فلما لبيت دعوتها ، قالت :

ـ سمعت أنك كنت مع دافيد .. انني أشكرك على مصاحبتك له .

ـ لا داعي للشكر .. لقد التقيت به مصادفة ، واعتقـــد انني استمتعت بصحبته .

وبعد ان تحادثنا قليلاً عن الجو والمناطق السياحية قلت لها :

– انني أنتوي الذهاب غداً الى بودي جارد ثم الى ساحة تيمز ، فهل يمكن أن أصحب دافيد معي اذا لم يكن لديك مانع ؟ انني لا أدري ان كانت صديقتي ستأتي معي أم لا ، ولهذا أتمنى لو ذهب دافيد معي .

وأخذت تشعل سيجارتها متمهلة قبل أن تجيب قائلة :

– انني لا أدري كيف أشكرك على اهتمامك بالصبي . ولا شك أنه سيبتهج كثيراً بهذه الرحلة . ولولا انني لا أحب التجول في المناطق السياحيـة لأخذته إليها بنفسي .

فضحكت وقلت :

– انني على العكس لا استطيع أن أضيع يوماً دون أن أرى بعض هـــذه المناطق . ويبـــدو أنني سياحية بطبيعتي وان كنت أفضل الذهاب الى هذه المناطق مع شخص أو اثنين على الاكثر أعني ، أنني لا أحب السياحة الجماعية .

ثم أردفت قائلة :

– وبهذه المناسبة فانني لا أرى في مدينة أفينون ما يستحق البقاء من أجله لولا ما فيها وما يحيط بها من مناطق سياحية .

ومرة أخرى فكرت برهة ثم قالت :

– الواقع اننا لن نطيل البقاء هنا .. لقـــد جئنا إليها في الطريق إلى مونت كارلو .. وبعد أن نستريح بضعة أيام سنستأنف الرحلة .

وبعد حديث قصير من هـــذا الطراز ، نهضت وشكرتها على دعوتها ، ثم انصرفت إلى داخل الفندق .

وفي المساء قررت لويز أن تبقى في حديقة الفندق ، ومن ثم خرجت بمفردي إلى الشارع الرئيسي حيث سرت فيـــه نحو منطقة القصور في أعلى جبل روشيردي دوم . وكانت المنطقة وما يحيط بها من حدائق وأشجار تكاد تكون خالية إلا من بعض السائحين .

وأخذت أصعد الطريق الملتوي الممتد إلى قمـــة الجبل ، حتى وصلت إلى حديقة متكاثفة الشجر يحيط بهـا سور من الحجارة السوداء ، وهناك ، تحت خميلة من الشجر ، وقفت معتمدة على السور أمتع النظر بمنظر نهر الرون وهـو ينساب في هدوء تحت سماء مرصعة بالنجوم .

وفيما أنا جالسة على حافة السور مستمتعة بالهدوء حولي ، إذا بي أسمع صوت رجل يتحدث في خفوت باللغة الفرنسية، وكان الصوت ينساب من مكان قريب.

– إذن فأنت هنا ؟

وأردت أن أبتعد عن المكان حتى لا أتسمع حديثاً خاصاً بين رجل وامرأة، ولكنني تسمرت في مكاني حين سمعت المرأة وهي ترد فاذا هي المسز بريستول :

– لقد تأخرت .. انتظرتك طويلا .. ألديك سيجارة ؟

وسمعت اشعال عود الثقاب ثم صوت الرجل وهو يقول في ضيق :

– انك لم تكوني هنا حين مررت بهذا المكان منذ عشر دقائق .

– لقد مللت الانتظار .. فتمشيت قليلاً ..

– ومرة أخرى قررت أن أتسلل هابطة إلى الممر من الناحية الأخرى حتى لا يراني أحدهما ولكنني تسمرت مرة أخرى في مكاني حين سمعت المسز بريستول تقول بصوت مليء بالخوف والقلق والاضطراب :

– لقد حدث ما كنا نتوقعه .. وكنت أعرف ان هذا ما سوف يحدث .

فقاطعها الرجل قائلاً في حدة ؟

– ما هذا الذي حدث ؟

– انه هنا .. وصل إلى هذه المنطقة .. ولهذا قررت أن أراك على انفراد.

ومرة أخرى قاطعها قائلاً :

– أرجوك أن تتمالكي أعصابك ، كيف عرفت انه هنا ؟

هردت قائلة بأنفاس لاهثة :

– تلقيت مكالمة الليلة .. لقد شوهدت سيارته في مونتليمار .. ولا شك انه في الطريق إلى هنا . ومن المؤكد أنه عرف مكاننا .

– لورين .. تمالكي نفسك .

– آه .. ماذا سنفعل الآن .. ماذا سنفعل ؟

وكان اليأس واضحاً في نبرات صوتها وهي تنطق بالعبارة الأخيرة .. أما الرجل فقد قال في هدوء :

– ليس هناك ما نفعله .. الآن . فنحن لا نعرف مكانه على وجه التحديد.. متى شوهدت سيارته في مونتليمار ؟

– أمس .

فهتف الرجل قائلاً في غضب :

– هؤلاء الحمقى .. يا إلهي .. أيشاهدون سيارته بالأمس ثم يتصلون بك تليفونياً اليوم ؟

– قالوا انهم لم يكونوا على ثقة تماماً .. كانت سيارة رمادية كبيرة عليها لوحة ثبت بها رقمان وعلامة مما يدل على أنها بريطانية .

– كان يجب أن يتأكدوا .. وإلا لماذا ندفع لهم الأتعاب الضخمة لمراقبته ؟

– ألا يمكن أن نعرف أين هو الآن .. انني .. انني لا أستطيع أن أحتمل أكثر من هذا .

فقال الرجل بصوت حاسم :

– لا .. لن نستطيع أن نفعل شيئاً الآن .. ولكننا سنعرف كل شيء بعد أيام قليلة . وأرجوك يا لورين أن تتمالكي نفسك ، وما كان ينبغي أن تستدعيني للمقابلة هنا الليلة . فنحن لا ندري إذا ما كنا بمفردنا أو أن هناك من يسترق السمع لأحاديثنا . وإذا رآنا أحد معاً فقد يخبر دافيد .. وهو قليل الثقة بك .

فردت المسز بريستول – أو لورين – قائلة :

– انني أحاول جاهدة أن أكتسب ثقته .

– انني أعرف ، ولكن دافيد ليس سهل القياد .. على أني لا أفكر في دافيد الآن بقدر ما أفكر فيه هو . فلو انه عرف علاقتي بك فلن أستطيع أن أساعدك في شيء بعد الآن . انه لن يتردد في البحث عن وسيلة لازاحتي عن طريقه ثم . ثم .

– لا .. لا .. أرجوك .

ورق صوته قليلاً وهو يقول :

— اسمعي يا عزيزتي .. لا داعي للاضطراب . لسوف ينتهي كل شيء على خير ما نحب . أعدك بهذا . لقد أنقذتك من قبل . أليس كذلك ؟ وأخرجتك من انجلترا في سلام .. أليس كذلك ؟ والصبي أيضاً .

— نعم .. نعم .. انني لا أفكر في هذا .

— إليك سيجارة أخرى .. اطمئني .

ولما أشعلها قالت :

— آه .. ما أغبى رجال المباحث الانجليزية ! لقد عجزوا عن تقديم الأدلة الكافية لادانته رغم كل ما بذلناه في هذا السبيل . ولو أنهم نجحوا في مهمتهم لكان الآن ميتاً .

وارتفع صوتها قليلاً وهي تردد في حدة وحقد :

— لكان الآن ميتاً .. وانتهى أمره تماماً ..

فقال الرجل في هدوء :

— حسناً .. انه لم يمت . وهو هنا الآن في فرنسا . وليس هناك ما يزعجنا منه . انه لن يستطيع أن يفعل بك شيئاً . وكل ما عليك أن تفعليه أن تتمالكي أعصابك وان تحتفظي بدافيد معك .. والآن يجب أن نعود الى الفندق .. انصرفي أنت أولاً .. لا .. يمكننا أن نسير معاً الى منعطف قصر البابوات .. ثم يمكنك أن تتقدمي بمفردك بعد ذلك ..

وفجأة سمعتها تقول وهي تهم بالانصراف :

– آه .. نسيت أن أقول لك .. أن تلك السيدة التي اسمها على ما أذكر سيلبورن.. لقد عرضت أن تصحب دافيد معها بالسيارة غداً إلى ساحة تيمز.. هل هناك أي مانع ؟

وسمعته يقول لها وهما يبتعدان :

– لا .. لا مانع اطلاقاً .. بل ربما كان هذا في صالحنا .

ووقفت برهة في ذهول بعد انصرافهما .. وكنت قد فهمت من حديثهما أنهما يقصدان ريتشارد بايرون .. والد دافيد !

لماذا يخافانه ! ولماذا يطارد زوجته السابقة ؟ هل أغضبه أنها طلقت منه ؟ هل يريد الانتقام منها . لا .. ان الناس العاديين لا يفعلون هذا . ولكن هل هو من الناس العاديين ألم تقل المسز بالمر أنه مجنون ألم تبرر رأيها بأن المجنون فقط هو الذي يضرب ابنه ضربة تفقده الصواب ثم يتركه ملقى في الحمام حتى يعثروا عليه في الصباح .

دافيـد ؟ !

آه .. لا شك أنه يريد دافيد . لا شك أنه جاء ليسترد ابنه ؟

لا .. ان هذا مستحيل ، انني ، شخصياً ، ما كنت لأسمح بأن أضع دافيد بين يدي والد مجنون سواء كان مجرماً حقاً أم بريئاً .

وهبط في الممر نحو منعطف قصر البابوات .. وهناك رأيت رجلا واقفاً يشيع بنظراته امرأة تبتعد بسرعة ..

وعرفت الرجل فوراً ..

انه نزيل الفندق .. المدعو مارزدن :

الفصل الرابع

لقاء بين الاطلال

كانت سيارة ركاب تنطلق في الطريق أمامنـا وتثير الغبار في وجوهنا .. ومن ثم قالت لويز التي كانت جالسة بجانبي :

ــ حذار ان تحاولي المروق بجانبها يا شاريتي .. ان السائقين هنا لا يراعون آداب القيادة وليس أثقل عليهم من أن يحاول سائق سيارة خاصة أن يسبقهم .

وقال دافيد الذي يجلس مع روميل في المقعد الخلفي :

ــ ولكن هذا الغبار ودخان السيارة يكتمان أنفاسنا ..

وانتهزت أول فرصة للمروق بجوار السيارة العامة ، ثم وضعت أقدامي على صمام الوقود « البنزين » ويدي على آلة التنبيه واندفعت كالسهم بجوار السيارة التي اضطر سائقها الى افساح الطريق لي وهو يحرك شفتيه باللعنات ولا شك .

وتنهدت لويز قائلة :

ــ لقد نجونا بمعجزة .

وقال دافيد :

– أرأيت ذلك الرجل الراكب في السيارة من ناحيتنا ؟

فقلت :

– لا .. كنت مشغولة بالسباق .. من هو ؟

– انه أحد نزلاء الفندق .. واعتقد ان اسمه مارزدن، وهو الذي يجلس عادة الى مائدة بجوار سور الحديقة ..

فقلت وأنا أحاول أن أجعل نبرات صوتي هادئة طبيعية .

– آه .. عرفته ..

وهدأت من سرعة السيارة قليلاً حتى تقترب سيارة الركاب ، ثم نظرت في المرآة الجانبية وعندئذ قرأت في مقدمة سيارة الركاب اسم مدينة تيمز .. ومن ثم علمت ان المستر مارزدن في طريقه الى تلك المدينة .

لماذا ؟

وحاولت أن أهتدي الى إجابة مقنعة لهذا السؤال . فلما عجزت تركت الأمر للظروف ، وركزت انتباهي على الطريق .

ولما وصلنا الى بلدة بودي جارد ، جلسنا في مشرب تحت ظليلة وتناولت لويز ادوات الرسم ، بينما قلت لدافيد :

– دافيد .. أرجو أن تسأل صاحب المشرب عن موعد وصول سيارة

الركاب إلى هنا وعن المدة التي تقف فيها للاستراحة ، وعن الوقت الذي تصل فيه إلى تيمز بعد ذلك .. هل تسعفك لغتك الفرنسية للقيام بهذه المهمة ! .

وأومأ دافيد برأسه ، ثم أسرع إلى داخل المشرب ، ولما عاد ، قال :

– ان السيارة ستصل إلى هنا بعد نصف ساعة ، ثم تتوقف نصف ساعة لكي تصل إلى تيمز في الواحدة والنصف بعد الظهر .

فشكرته وقلت وأنا أنظر إلى ساعة يدي :

– ان الساعة الآن الثانية عشرة .. وهذا يعني أن في مقدورنا البقاء نحو ساعة قبل أن تسبقنا السيارة العامة مرة أخرى في الطريق .

ولما تأهبنا لاستئناف الرحلة إلى تيمز ، قالت لويز :

– انني سأبقى هنا لأتم رسم هذه اللوحة .. ويمكنك يا شاريتي أن تمري علي عند عودتك فإذا لم تجديني فاعلمي انني قد سبقتك في العودة إلى أفينون .

ولما كنت أعلم أن الجدل مع لويز لا جدوى منه ، فقد انطلقت بالسيارة مع دافيد وكلبه في الطريق إلى تيمز . وعندما وصلنا ، أوقفت السيارة في طريق جانبي صغير بالقرب من ميدان الكتدرائية ، ثم تناولنا طعام الغداء في مطعم صغير أنيق يبعد عن الميدان وعن محطة السيارات العامة .

وقال دافيد :

– أرجو أن نرى الساحة أولاً .. وأن نشاهد أين يحتفظون بالثيران .

ووافقته على رغبته .. وسرنا في الشارع المؤدي إلى الساحة .

واشترينا تذاكر الدخول ، ومضينا الى المقاعد المحيطة بالساحة الضخمة ، ولما شعرت بالتعب جلست أستريح بالقرب من المدخل وتركت دافيد يتجول حولها بفضول الصبي الذي يطلق لخياله العنان .

ويبدو أني غفوت قليلاً وأنا أسمع همهمة السياح من كل جنسية . ولما فتحت عيني سمعت سيدة تقول لي وهي تقدم إلي حقيبة يدي .

– لقد سقطت هذه الحقيبة منك يا سيدتي ..

– أوه .. معذرة .. يبدو اني غفوت ..

– انها حرارة الجو .. ولا شك ..

وشكرتها .. وسمعتها تدعو ابنها لتنصرف .. ولم يلبث أن أقبل دافيد لاهث الأنفاس ممتقع الوجه فقلت له :

– ماذا بك ؟ . هل تشعر بشيء ؟

– لا .. لا ..

ثم جذبني من ذراعي وأردف قائلاً في لهفة :

– هلم ننصرف .. أرجوك .

وسرنا معاً ، والكلب روميل في أعقابنا . ولما رأيت دافيد يتجه نحو مكان السيارة قلت بدهشة :

– ألا تريد أن ترى أماكن أخرى يا دافيد ؟

فتوقف في منتصف الطريق وقال في قلق :

– يبدو انني على غير ما يرام .. انها حرارة الجو .. وأخشى ألا أستطيع أن أصحبك لرؤية الأماكن الأثرية الأخرى .. يمكنني أن أنتظرك في مكان ما..

فأمسكت بذراعه وقلت :

– ليس من المهم أن أشاهد اليوم شيئاً .. انني آسفة لما أصابك . هل نمضي إلى السيارة مباشرة ؟

ولما وصلنا إلى الميدان ، توقف وقال وهو يحاول الابتسام رغم شحوب وجهه :

– انني الآن بخير يا مسز سيلبورن.. سوف أجلس في الكتدرائية لأستريح ريثما تعودين من جولتك .. أرجو ألا يغشاك القلق من أجلي .

– ما رأيك في قدح من شراب النعناع المثلج .. ان هناك مشرباً لطيفاً .

– لا .. لا .. لا داعي لهذا .. انني في حاجة فقط كي أستريح في مكان ظليل ، وليس هناك أفضل من الكتدرائية .

– وماذا عن الكلب ؟

– سوف أجلس في مقعد خلفي عن كثب من الباب ، وما أظن أحداً يمنع دخول الكلب معي .

وصدق حدس الصبي . فان أحداً لم يمنع دخول روميل معه . وكان جو الكتدرائية في الداخل رطيباً منعشاً حقاً . وهكذا تركت دافيد وأنا مطمئنة عليه .

وبعد أن قمت بجولة في الأماكن الأثرية ، شربت قدحين من عصير البرتقال

المثلج بالقرب من معبد ديانا الأثري ، ثم اشتريت تذكرة لدخول المعبد . وهناك ، بين الاطلال والأعمدة ، جلست استريح وأعيش لحظات في ذكريات الماضي

ويبدو أن ذكرياتي تركزت – رغماً عني – حول زوجي الراحل جوني .. وكان الهدوء السائد حولي يزيد احساسي بالوحدة والوحشة .. فأغمضت عيني ، ولم أكن أشعر بأن الدموع طفرت منها حتى أفقت على صوت رجل يقول لي :

– ماذا بك يا سيدتي ؟ هل تشعرين بشيء ؟

وانتفضت في مكاني ، وفتحت عيني لأرى رجـــلا طويل القامة عريض الكتفين ، أنيق الملابس ، صارم الوجه ، يردف قائلاً وهو ينظر إلي في عطف :

– ماذا بك يا سيدتي ؟ أهي حرارة الجو ؟

وأحسست بالدموع التي تعلقت بأهدابي وأنا أقول في اضطراب :

– لا لا .. لا شيء .. كنت أشعر ببعض التعب فقـــط .. والواقع اني أحب الوحدة .

– انني آسف .

فنهضت قائلة :

– وأنا أيضاً آسفـــة .. أرجو ألا تزعج من أجلي .. انني بخير . فابتسم وتناول من جيبه علبة سجائر وقال :

– اسمحي لي أن أقدم لك سيجارة تهدىء أعصابك .. أخشى أن أكون قد أزعجتك بمفاجأتي لك على هذا النحو ..

ولما ترددت في قبول سيجارته أردف قائلاً :

– إذا كنت تكرهين أن تقبلي سيجارة من رجل غريب فاني أتشرف بتقديم نفسي : ريتشارد كولريدج .

قبلت السيجارة وأنا أقول :

– وأنا اسمي شاريتي سيلبورن ، وان كان الواجب ان اسمي شاريتي مردسورث .

فأشعل السيجارة لي وقال :

– هل أنت من بلدة سيلبورن التي تحدث عنها الكاتب جيلبرت هوايت ؟

– جيلبرت هوايت ؟

– نعم .. انك قرأت هذا الكتاب ولا شك .

– أجل .. قرأته .. ويبدو أن الكثيرين قرؤوه .. وقد دهشت حين وجدت أن صبياً مثل دافيد قرأه أيضاً .

وفوجئت به يقول بصوت لا يخلو من رنين اللهفة والعجب :

– دافيد !

– نعم .. دافيد شيللي .. انه الصبي الذي كنت أفكر فيه حين قلت أن الواجب أن اسمي نفسي شاريتي وردسورت . فان جميع الأشعار العاطفية تبدو ..

– أين التقيت بهذا الصبي دافيد شيللي ؟

وعندئذ نظرت إليه في دهشة وقلق .. وتراجعت عنه خطوة وأنا أرى في عينيه نظرات حادة .. نظرات الرجل الذي يوشك أن ينقض على غريمه .

وعاد يقول بصوت هادىء ، ولكنه قاطع كالسكين :

– أين التقيت بالصبي دافيد شيللي ؟

وسرت في جسدي رعدة قوية حين لاحظت الشبه الكبير بين عيني الرجل وعيني دافيد .. شيللي .. كوليردج .. بايرون ..

وسطعت الحقيقة بوضوح أمام عيني ؟

لقد وجدت نفسي واقفة في معبد أثري مهجور .. وجهاً لوجه مع ريتشارد بايرون .. مع والد دافيد ..

مع الرجل الذي أتهم بارتكاب جريمة قتل ، وصدر الحكم ببراءته لعدم كفاية الأدلة .. مع رجل كان يحملق في وجهي بعيني وحش يتحفز للانقضاض علي ..

ورأيته يلقي السيجارة على الأرض ويتقدم نحوي وهو يقول مردداً :

– أين التقيت بالصبي دافيد شيللي ؟

الفصل الخامس

دموع الطفل

وقبل أن أفتح فمي لأقول شيئاً ، إذا بحارس المعبد يقبل نحونا ويقول :

— تذكرتك يا سيدي ..

واستدار ريتشارد بسرعة نحوه وقال بحدة :

— ماذا تريد من تذكرتي ؟

— انك لم تحصل على تذكرة دخول هذا المعبد ..

— ان معي تذكرة عامة لدخول جميع المناطق الأثرية بالمدينة .

— ولكن هذا المعبد له نظام خاص .. لا بد من شراء تذكرة خاصة به .

ومد ريتشارد يده في جيبه وأخرج بعض النقود وسلمها للحارس في ضيق ، بينما قدمت أنا تذكرتي للحارس ليطلع عليها ، وكنت في خلال هذه الفترة الوجيزة أفكر في الطريقة التي أستطيع بها الوصول إلى الكتدرائية ثم إلى السيارة دون ملاحقة هذا الرجل لي .

ولما توجهت للخروج من المعبد ، سمعت خطواته ورائي ، ثم صوته وهو يقول :

– لحظة من فضلك يا سيدتي .

فاستدرت إليه وقلت في هدوء :

– لقـــد تشرفت بلقائك العابر يا سيدي .. وشكراً على سيجارتك .. ولكنني أريد الانصراف الآن .. طاب يومك .

فاقترب مني وقال وهو يسير بجانبي :

– كنت أريد فقط أن أسأل ..

– أرجوك .. انني أفضل أن أسير بمفردي ..

– أريد أن أتحدث معك قليلاً في ..

– ليس هناك ما يدعو لمواصلة الحديث بيننا .

فقال بوجه مقطب :

– كل ما أريد منك أن تذكري لي أين التقيت بالصبي دافيد شيللي .

– وما شأنك أنت به .

– لأنني أعرفه .. وإذا كان في مكان قريب فاني أحب أن أراه .. انه ابن صديق عزيز .. وهو يريد مني أن أقابله وأتحدث إليه .

وتذكرت دافيد الذي كان يختبىء عندئذ في الكتدرائية .. وأدركت أن الصبي لا بد قد لمح أباه في الساحة ، فأسرع يختبىء منه وقـــد غلبه الخوف على أمره .

وقلت في هدوء :

– انني آسفة .. فأنا لا أعرف عنه شيئاً . لقـــد التقيت به مصادفة في احدى المناطق الأثرية كما التقيت بك الآن .. ولا أعرف أين يقيم ..

– متى كان هذا ؟

– منذ يومين .

ونظرت إلى الشارع المزدحم بالناس في اطمئنان .. وعاد يسأل :

– وأين ؟

وأسرعت أقول كاذبة :

– في تاراسكون .

– وأين في تاراسكون ؟

ولما لم أكن رأيت تاراسكون من قبل ، فقد أسرعت أقول بلا تفكير :

– في الكتدرائية .

وبرقت عيناه بالشر .. وخيل إلي أنه يوشك أن ينقض علي ليقتلني لولا أن فوجئنا بصوت سيدة تقول لي وهي تقترب منا بين جماعة من السائحين :

– طاب يومك يا عزيزتي .. ألم أرك من قبل .. آه .. انني التي التقيت بك في الساحة وأعدت إليك حقيبتك .. أين الصبي الذي كان معك ؟

وقبل أن أجيب شغلت المرأة بأمر ابنها ، ورأيت أن الموقف يزداد حرجاً، فأردت أن أسرع مبتعدة عن ذلك المدعو ريتشارد ، ولكنه أمسك بذراعي وقال بصوت هامس رهيب :

– لحظة من فضلك .

– دعني وشأني .

– اذن فقد كنت معه في الساحة اليوم ؟

– إذا لم تترك يدي فسوف أستغيث برجال الشرطة .

– فأرسل ضحكة ساخرة وقال :

– هيا افعلي .. ان هذا ما أريد ..

وتخيلت الضجة التي يمكن أن تحدث لو أنني لجأت إلى الشرطة ، ولهـذا أخذت أفكر قلقة في الطريقة التي يمكنني بها الهرب من تيمز مع دافيد دون أن يلحق بنا هذا الوالد الذي كان يبدو عليه أنه مجنون حقاً .

ولما طال صمتي قال :

ـ هه .. لماذا لا تقولي شيئاً أيتها اللعينة الجميلة ؟

وشعرت بالغضب يملأ نفسي .. ويبدو أن الغضب يحفز الانسان ويزيد نشاطه ويزوده بقوة وجرأة تجعلانه قادراً على التصرف في سرعة .. وكنا قد وصلنا إلى ميدان الكتدرائية ومحطة السيارات العامة . ومن ثم قلت وقد رسمت الخطة بوضوح في ذهني:

ـ أعترف انني كنت مع دافيد في الساحة .

ـ وأين هو الآن ؟

ـ انه لم يشأ أن يذهب معي إلى المناطق الأثرية ، ولهذا تركته يتجول قليلاً في المدينة على أن نلتقي في محطة السيارات العامة ..

فنظر الرجل إلى المحطة ثم قال :

ـ انه غير موجود .. إلى أين كنتما ستتجهان ؟

ـ كنا سنركب السيارة الذاهبة إلى مونبلييز .

ـ ان هذه السيارة واقفة الآن بالمحطة .. متى ستقوم ؟

ونظرت إلى السيارة ورأيت السائق والمحصل واقفين في الشمس يستريحان ، ومن ثم قلت :

ـ في خلال ربع الساعة .. والآن . هل تسمح لي بالانصراف . انني آسفة إذا كنت قد ضايقتك .. بالرغم من أنك أفزعتني ! .

وتردد برهة ثم ترك يدي قائلاً :

ـ وأنا آسفة إذا كنت قد أفزعتك .. ولكن ما كان ينبغي أن تكذبي علي .. فانـــه لا يوجد في قرية تاراسكون أية كتدرائية .. انني شديد اللهفة لمقابلة دافيد ، وكنت أظن أنك تحاولين مراوغتي ومنعي من مقابلته .. لسوف أذهب الآن للقائه في السيارة .

وسار مسرعاً نحو السيارة العامة الواقفة بالمحطة وسرت أنا على مهل حتى لا أثير ارتيابه ولما وصلت إلى منعطف الشارع الجانبي ، اندفعت اجري كالأرنب في منعطفات متداخلة حتى وصلت إلى الكتدرائية وتسللت إليها ، وأمسكت بذراع دافيد الذي كان جالساً مطرق الرأس وقلت له :

ـ هلم أسرع معي ولا تسألني عن شيء الآن .

واندفعت معه عائدة إلى الشارع الجانبي الذي تركت فيه سيارتي الرايلي ، ولاحت مني نظرة خاطفة على محطة السيارات العامة حيث لم أجد أثراً للسيارة المتجهة إلى مونبليير ، ومن ثم أدركت أن ريتشارد لا بد قـــد تبعها بسيارته الرمادية ..

وبعد لحظات كنت أنهب الطريق بسيارتي إلى أفينون .

* * *

وقلت لدافيد ونحن في الطريق :

ـ لقد رأيت والدك في ساحة المصارعة يا دافيد .. أليس كذلك ؟

فقال بصوت خافت دون أن ينظر إلي :

ـ نعم.. سمعت صوته أولاً.. ولما نظرت إلى مصدر الصوت رأيته يتحدث مع رجل . ولكنني أعتقد أنه لم يرني .

ـ انه لم يرك فعلاً.. الا أنه عرف بوجودك هنا بسبب حماقة مني. ولكنني أعتقد أنني خدعته وتركته ينطلق وراء السيارة المتجهة الى مونبلييه .

ـ حسناً .. انها في الاتجاه المضاد لأفينون .

وأحسست بالعطف الشديد على الصبي حين لمحت الحزن العميق بادياً على وجهه وقد جلس يحتضن كلبه روميل .. ومن ثم قلت :

ـ هل الأمر سيء إلى هذا الحد ؟

ـ كيف عرفت بمأساتنا يا مسز سيلبورن ؟

ـ من بعض نزلاء الفندق ، هل كنت تعلم أنه في تيمز ؟

ـ لا .. كنت أعرف فقط أنه في فرنسا .. وأرجو ألا تكوني قد أخبرته أننا نقيم الآن في أفينون .

ـ لا طبعاً .. هل الأمر خطير إلى هذا الحد ؟

ـ نعم .. انها مسألة موت أو حياة .

ـ دافيد .. هل تشعر بالراحة النفسية إذا حدثتني عن كل شيء .

ـ انني لا أدري .. ماذا قالوا لك في الفندق ؟

ـ لم يقولوا شيئاً أكثر مما ورد في الصحف ، ولو أنكِ قلت لي أنك رأيت أباك في الساحة وانك لا تريد مقابلته ، لأخذت حذري .

ـ أرجوك يا مسز سيلبورن ألا تخبري أحداً ، أياً كان ، بما حدث اليوم .

ـ حتى زوجة أبيك .

ـ نعم .

ـ حسناً .. انني أعدك بهذا .

ـ شكراً جزيلا ..

وبعد برهة صمت قلت :

ـ لأعجب إذا كنت تخشى مقابلته بعد ما سمعت أنه . أنه ..

ـ انه مجنون .. أعتقد هذا ؟ لا بد أن يكون الأمر معه كما يقال عنه .

ولما وصلنا إلى المشرب في بودي جارد ، لم نجد أثراً للويز ، ومن ثم أدركت أنها سبقتنا إلى أفينون .. وهكذا واصلنا الرحـــلة حتى بلغنا الفندق قبيل الساعة السادسة مساء وهناك ، في الحديقة الصغيرة ، رأيت لويز جالسة في انتظار وجبة العشاء .

* * *

وخرجت مع لويز بعد العشاء إلى المدينة حيث جلسنا فترة من الوقت في أحد المقاهي . ولما عدنا إلى الفندق ، كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة . ومن ثم مضيت في طريقي إلى الحمام لأغتسل قبل النوم . وفيما أنا أهم باغلاق الباب ، سمعت خطوات متسللة في الردهة ثم باباً يفتح ، ثم صوت رجل يقول هامساً :

ـ لورين .

وتسمرت في مكاني أرهف السمع . ذلك أن الصوت كان لنفس الرجل الذي كان يتحدث مـــع المسز بريستول في حديقة روشيردي دوم . وسمعت المسز بريستول تقول :

ـ أهذا أنت .. ماذا حدث ؟

ـ لورين .. انه هنا .. لقد رأيته اليوم في تيمز .

وأغلقت باب الحمام وأنا أتذكر مارزدن الذي رأيته في السيارة العامة المتجهة إلى تيمز ..

وقررت أن أسأل دافيد عن دور مارزدن في الأمر ، ولما اقتربت من باب غرفة الغلام ، بعد خروجي من الحمام ، توقفت فجأة حين سمعت شهقات بكائه وراء الباب المغلق .

وعدت إلى غرفتي وأنا أشعر بالحزن يعتصر قلبي .

الفصل السادس

مرة أخرى بين الاطلال

قضيت اليوم التالي كله وأنا أشعر بالسأم ، وكان دافيد قد غادر الفندق مع ذلك المدعو مارزدن ، وقد علمت من زوجة أبيه انه ذهب لقضاء اليوم في نزهة طويلة مع ماردن . وفي اليوم التالي قررت أن أمضي يوماً أو يومين بعيداً عن الفندق، في مكان هادىء ، حتى أنسى مأساة دافيد ووالده ، بعد أن رأيت أنه لم يكن في مقدوري أن أفعل شيئاً ..

وذهبت الى غرفة لويز وقلت لها :

ــ لويز انني أشعر بالسأم هنا . ولهذا سأذهب بالسيارة إلى بلدة لابو لقضاء ليلة أو ليلتين .. هل تحبين أن تأتي معي ؟

ــ لابو ؟ وأين تقع هذه البلدة ؟

ــ انها بلدة مليئة بالخرائب الأثرية على مسافة غير بعيدة شمالي أفينون .

فهزت لويز رأسها وقالت :

ــ لا يا عزيزتي .. انني أفضل البقاء هنا .

وودعتها ، وانطلقت بالسيارة إلى بلدة لابو .. وهناك وجدت لحسن حظي غرفة خالية للمبيت في فندقها الصغير الوحيد .

* * *

وبعد أن تناولت العشاء ، ذهبت للنوم وأنا أزمع أن أصحو مع الفجر لأقوم بجولة في المنطقة الأثرية . وكان الكتيب السياحي قد ذكر ان منظر بزوغ الفجر في خرائب بلدة لابو لا يضارعه منظر آخر في العالم ، ولم أدر كم ساعة نمت ، ولكنني استيقظت فجأة وأضأت المصباح الكهربائي ونظرت في ساعتي فوجدتها السادسة صباحاً ، ومن ثم ارتديت ملابس الخروج الخفيفة وأسرعت من الفندق إلى منطقة الآثار ، حيث جلست على حجر وأخذت أستمتع بالهدوء والوحدة ومنظر ضوء الفجر وهو يتسلل رويداً رويداً من ناحية الشرق .

وشعرت فجأة بالبرودة ، فنهضت وأحسست بالرغبة الشديدة في اشعال سيجارة وفجأة شعرت بحركة ورائي فاستدرت مسرعة وأنا أضع يدي على عنقي من فرط الخوف . وهنا رأيت ريتشارد بايرون يقول في هدوء :

ـ ها نحن نلتقي مرة أخرى .

وطرفت بعيني وأنا لا أصدق نظري .. وتسمرت في مكاني احملق فيه وهو يشعل سيجارته .. وأخيراً قلت في صوت خافت :

ـ كيف جئت الى هنا ؟

ـ لقد توقفت عند محطة « بنزين » في طريقك الى هنا .. ومضيت لتشربي قدحاً من ليمون مثلج في مشرب قريب من المحطة ريثما يملأوا لك الخزان بالبنزين ..

ـ نعم .. هذا ما حدث . في بلدة سان ريمي .

ـ وأنا كنت هناك .. ولكنك لم تريني .. ولما سمعتك تسألين عامل المحطة عن الطريق الى لابو ، أدركت أنك لن تفلتي مني هذه المرة .

ـ وماذا تريد مني ؟

ـ ألا تعرفين أيتها الشيطانة الجميلة أين دافيد ؟

ـ نائم في فراشه ولا شك .

ـ ليس هذا وقت العبث .. أين هو ؟

ـ انني لن أخبرك بطبيعة الحال .

ـ أتريد مالاً ؟

ـ ان لدي من المال أكثر جداً مما يخطر ببالك .

ثم أردفت قائلة :

ـ ولكن هذا لا يمنع من أن أطلب منك سيجارة .

ولما أشعل لي السيجارة ، قال لي :

ـ اسمعي يا عزيزتي .. اذا أبيت أن تخبريني أين دافيد ، فسوف أضطر الى ارغامك على الحديث بوسائل لا ترضيك .

فقلت وأنا أحاول أن أبدو هادئة .

ـ كيف سترغمني ؟ هل ستعذبني بالكي بالنار يا مستر بايرون ؟

وألقى سيجارته تحت قدميه وقال :

ـ أعتقد انك تعرفين من أنا .. انني والد دافيد .. ومن حقي أن أعرف مكانه .

ولما التزمت الصمت ، أردف قائلاً بصوت حاد كالسكين :

ـ لا شك انك تعرفين ما حدث .. تعرفين انني اتهمت بارتكاب جريمة قتل ..

وأحب أن أخبرك ان الذي يرتكب جريمة قتل مرة ليس أسهل عليه من ارتكابها مرة أخرى .. والآن تكلمي ..

وتقدم نحوي بوجه مربد مفعم بالغضب . وتراجعت عنه قليلاً .. ثم سقطت على الأرض مغشياً علي .

* * *

ولما أفقت وجدت نفسي راقدة في فراشي بغرفة الفندق الصغير بنفس البلدة، ورأيت ريتشارد جالساً على الفراش الآخر .. وكانت الغرفة بسريرين .. وخيل إلي لحظة أن ريتشارد هذا هو زوجي الراحل جوني .. ومن ثم تمتمت وأنا في شيء من الذهول :

- جوني ..

ولكن صوت ريتشارد جعلني أصحو تماماً من ذهولي :

- اذن فقد عدت إلى صوابك .

وبعد برهة صمت قلت :

- كيف تجرؤ على البقاء معي في غرفتي الخاصة هذه ؟

فأرسل ضحكة قصيرة وقال :

- لقد أفهمت صاحب الفندق انك زوجتي . وبهذا أصبح من حقي أن أبقى معك في كل مكان .

- وكيف أمكن أن يصدقك وهو يرى كلا منا يأتي إلى الفندق في سيارة خاصة .

- انني لم آت في سيارتي .. لقد تركتها في طريق جانبي على بعد مائتي ياردة .

ـ وماذا لو صرخت في طلب النجدة .

ـ ومن يمنعك .. هلم اصرخي .. ان الأمر سينتهي بنا إلى مركز الشرطة ، وهنا سأعرف أين تنزلين .. وبهذا أعرف أين ينزل ابني دافيد .

وحمدت الله في نفسي لأني لم أكتب في سجل الفندق المكان الذي جئت منه ، وانما ذكرت أني « سائحة » فقط .

وفجأة قال لي :

ـ ومن هو جوني هذا ؟

ـ انني لا أريد أن أتبادل معك أي حديث .. انني في حاجة إلى النوم .

ثم تدثرت بالغطاء ، واستدرت بظهري ناحيته ، واستغرقت ـ للعجب الشديد ـ في نوم عميق .

* * *

واستيقظت في نحو التاسعة صباحاً .. وتنهدت في ارتياح عندما رأيت الغرفة خالية ومن ثم نهضت واغتسلت وهبطت إلى الحديقة الصغيرة لأتناول الافطار ، وهناك وجدت ريتشارد واقفاً يدخن في انتظاري .

ـ أرجو أن تكوني قد نمت جيداً .

ـ اسمح لي بسيجارة .

وجلسنا إلى مائدة نتناول الافطار .. وكنت رغم هدوئي الظاهري ، أبحث عن وسيلة للهرب من هذا الرجل الذي خشيت أن يكون مجنوناً حقاً .. ووقعت نظراتي على سيارتي الرايلي الواقفة على مسافة عشر ياردات من باب الحديقة .. ثم تذكرت ما قاله بايرون عن سيارته التي تركها في منعطف جانبي على مسافة مائتي ياردة .. وهذا يعني أني لو استطعت الانطلاق بسيارتي ، فسوف أسبقه بمسافة كبيرة .. وربما استطعت أن أروغ منه تماماً ..

وما دام قد تظاهر أمام صاحب الفندق بأنه زوجي، فعليه أن يدفع نفقات اقامتي بعد أن أهرب .

وبدأت أفكر في الوسيلة التي أوصل بها إلى السيارة في غفلة منه . وفتحت حقيبة يدي متظاهرة بالبحث عن منديل، ولكنني اطمأننت على وجود مفاتيح السيارة ، وحرصت على أن أجعلها في مكان قريب من متناول يدي .

وقال ريتشارد وهو يشعل لي سيجارة بعد الافطار :

ـ لماذا جئت إلى هذا المكان .. ومن هو جوني الذي رددت اسمه عندما أفقت من غشيتك ؟

ـ أرجوك .. انني لا أريد أن أتحدث معك.. كما اني أشعر بالتعب الشديد هذا الصباح .

ثم ألقيت بالسيجارة قبــــل أن أفرغ منها ، وتراخيت برأسي إلى الوراء متظاهرة بالتعب الشديد، وكنت في تلك اللحظة قد لاحظت أن النادل مشغول داخل الفندق باستقبال ثلاثة من الوافدين الجدد .

وقال وهو يرمقني في ارتياب :

ـ ماذا بك ؟

ـ لا شيء .. لا شيء ..

وبعد برهة قلت :

ـ أرجوك أن تطلب من الساقي أن يأتي إلي بكوب من الماء .. أو بكأس البراندي .

ونادى ريتشارد على الساقي .، ولكن هذا كان مشغولاً بالوافدين الجدد .. ولما كرر النداء على غير جدوى صوب إلي نظرة مليئة بالقلق ، ثم نهض وتقدم

إلى داخل الفندق وقبل أن يختفي فيه ، عاد وألقى علي نظرة أخرى لا تخلو من الريبة . ولكنه اطمأن حين رآني مسترخية برأسي في تعب شديد .

وكانت تلك فرصتي السانحة .. وسرعان مـــا وثبت واقفة وانطلقت إلى السيارة ، وفتحت بابها ، وأدرت محركها بسرعة بالغة ، وفيما أنا أهم بالانطلاق بها ، رأيت ريتشارد يخرج من الفندق ويجري نحوي .. ولكنني كنت قـــد ابتعدت ..

وقررت أن ألقي نظرة على سيارته التي تركها في منعطف الطريق ، ذلك اني كنت أخشى أن تكون سيارة أقوى وأسرع من سيارتي ، فأعجز عـــن التخلص منه ، وحدث ما كنت أخشى ، اذ لمحت انها سيارة من طراز « بنتلي » القوي ، ومن ثم أوقفت سيارتي بسرعة ، وهبطت منهـــا ، واندفعت إلى السيارة البنتلي الرمادية الكبيرة وقد قررت ان أعطلها بأية وسيلة .

وأسرعت إلى احدى العجلات فأفرغت الهواء منها ، ثم مزقت الأسلاك المواصلة بين « الدينامو » والبطارية ، وعدت إلى سيارتي واندفعت بها وانا أرى في المرآة الجانبية ريتشارد بايرون ينطلق عدواً ورائي ليركب سيارته ..

ولما خرجت الى الطريق العام .. انحرفت الى الاتجاه المضاد لمدينة أفينون.. أي في الطريق المؤدي إلى مارسيليا ..

الفصل السابع

« المطاردة ١ »

كان الجو صحواً والشمس مشرقة والهـــواء المنعش يصفر في اذني والسيارة الرايلي تنطلق كالسهم في الطريق الى مارسيليا . وكنت قد قررت ان امضي الى هذه المدينة أولاً لأمعن في تضليل ريتشارد بايرون ، ثم اعود في اليوم التالي الى افينون لأصحب لويز الى اي مكان آخر بعيداً عن دافيد ومأساته مع والده .

وبلغت مفترق طريقين ، كل منهما يؤدي إلى مارسيليا .. ولكن الطريق الأيمن كان الأطول والأبعد عن العمران ، ولهذا قررت ان امضي فيه امعاناً في تضليل ريتشارد اذا كان قد استطاع ان يصلح سيارته ويندفع ورائي .

ووصلت بعـــد ساعة تقريباً إلى قنطرة ضيقة فوق النهر ، وكانت عمليات الاصلاح تجري في قاعدتها ، ولهذا وقف على طرفيها اثنان من رجال الشرطة لتنظيم عملية المرور . وكانت السيارات والمركبات بمختلف انواعها تمر عليهـــا ببطء من طرف الى آخر ، ثم يأتي دور السيارات والمركبات لتمر عليها من الطرف الآخر الى الأول ، وهكذا .

ووقفت بسيارتي بين عدد كبير من السيارات .. ومـــن حسن حظي لم يكن امامي اية مركبة من هذه المركبات الريفية التي تجرها الثيران .. واقول

من حسن حظي لأني لم ألبثَ ان رأيت على مسافة ورائي السيارة البنتلي الرمادية تحاول ان تمرق ببطء وحذر من وراء مركبة يجرها ثور . ويلوح ان ريتشارد لم يكن يعرف طبيعة هؤلاء القرويين الفرنسيين ، لأن سائق المركبة ما كاد يدرك ان السيارة البنتلي تريد ان تمرق بجانبه لتسبقه حتى ضرب الثور بسوطه وانحرف بالمركبة ليسد الطريق على ريتشارد .

ولما اذن لنا الشرطي بالمرور ، مضينا ببطء حتى قطعنا القنطرة ، ثم انحرفت في الطريق الوحيد المؤدي الى مارسيليا ، واطلقت للسيارة العنان .. وكنت ارى في المرآة السيارة البنتلي وهي تزحف ببطء وراء المركبة على القنطرة . ولم اكن اشك في سوء الحالة النفسية التي كان عليها ريتشارد وهو يزحف مرغماً وراء المركبة وسائقها العنيد .

وكنت بطبيعتي لا اخشى السرعة .. اذ كان زوجي الراحل جوني من هواة سباق السيارات ، وكان ايضاً طياراً مات اثناء الحرب . وكثيراً ما كنت اخرج معه في سيارته للنزهة فتنطلق بسرعة مائة كيلو متراً في الساعة !

ولمحت اثناء انطلاقي قطاراً يجر نحو عشرين مركبة ، وكان سريعاً في انطلاقه .. ويبدو أن سائق القطار أراد أن يدخل معي في سباق ، فاذا هو يطل برأسه مع مساعده ويلوح نحوي بيديه. وأومأت برأسي وابتسمت وضغطت على صمام البنزين ، وإذا السيارة الرايلي تقفز إلى الأمام وتزيد من سرعتها عشرين كيلو متراً .. وحاول سائق القطار أن يلحق بي ، ولكنه كف عن المحاولة حين أدرك في النهاية أن لي من قوة الأعصاب ما يجعلني أستمر في هذه السرعة بلا توقف .

ورأيت من بعيد مزلقان سكة الحديد.. وأدركت بداهة أن عامل المزلقان لا بد أن يغلقه بالسياج الحديدي لمرور القطار الذي كان في الطريق إليه، ومعنى

هذا أنني سأقع صيداً سهلاً في قبضة ريتشارد إذا أغلق المزلقان في وجهي مدة لن تقل عن ربع الساعة ..

وقررت أن أغامر .. ورأيت عامل المزلقان من بعيد وهو يتجه نحو مقبض السياج ليهبط به .. وهنا ازددت ضغطاً بقدمي على صمام البنزين ، ووضعت يدي على آلة التنبيه .. ووثب العامل جانباً في خوف وقـــد ظن أنني وراءه مباشرة .. وتوقفت يـــده على المقبض وهو يلتفت نحوي .. ورأيت السياج يتحرك ببطء .. ثم يتوقف قليلاً .. كل هذا وأنا أمرق كالسهم من المزلقان ..

وفي المرآة رأيت السياج يهبط ويغلق الطريق ـ لمدة لا تقل عـــن ربع الساعة ـ بيني وبين السيارة البنتلي الرمادية.

ولكن .. من يدري .. فان في مقدور ريتشارد أن يرشو عامل المزلقان ليرفع السياج ويسمح له بالمرور . وكثيراً ما حدث هذا .. اذن كان علي أن أواصل الانطلاق بأقصى سرعة ممكنة حتى أصل إلى مارسيليا وأختفي في شوارعها المزدحمة .

وظل الطريق يقصر حتى لم يبق غـــير عشرين كيلو متراً على مارسيليا .. ومررت عند الكيلو عشرين على مشرب صغير ملحق به محطة بنزين .. وشعرت بجفاف حلقي وبالرغبة في الطعام وتمنيت لو كان في مقدوري أن أهبط لأستريح وأتناول بعض الشطائر والمشروبات المثلجة .. ولكنني لم أستطع .. فقد كنت واثقة أن السيارة البنتلي تنهب الأرض ورائي باصرار وجنون .

ولكن شاء القدر ألا أحرم من الطعام والشراب .. فمـــا كدت أبتعد عن المشرب حتى تخلخلت عجلة القيادة في يدي ، ولم ألبث أن أدركت أن العجلة الأمامية اليمنى قد ثقبت وفرغ هواؤها ..

وحمدت الله ان هذا لم يحدث في مكان بعيد عن العمران ، وكدت أقبـــل

سيارتي العزيزة التي أبى ذوقهـــا الا أن تتعطل في مكان لا يبعد عشرين أو ثلاثين متراً من محطة بنزين .. وهكذا عدت بها إلى الوراء في حـــذر وتمهل ، ورأيت صاحب المشرب ـ وكان رجلا بديناً مرحاً ـ يسرع لاستقبالي .

وهبطت من السيارة وأنا أقول :

ـ أرجوك يا سيدي .. انني في حاجة لتغيير إحدى عجلات السيارة .. هل يمكن أن أجد العون هنا .. انني متعجلة جداً .

ولما رأيت الرجل ينظر بهدوء إلى العجلة المعطلة ، قلت في لهفة :

ـ أرجوك يا سيدي .. انني هاربة من شخص ما .. وهو يطاردني الآن .. وإذا لحق بي فسوف تقع جريمة ولا شك .

وأشرق وجه الرجل ابتساماً وهو يقول :

ـ زوجك .

ـ نعم .. انه يطاردني .. فهلا ساعدتني في هذه المحنة يا سيدي .

وكنت أعرف أنه لا يوجد فرنسي يتردد في تقديم العون لأية سيدة في مثل هذه الظروف ، وبعد لحظات كنت أضع سيارتي وراء المشرب ، لتكون بعيداً عن أنظار المارين في الطريق العام ، ثم قادني صاحب المشرب إلى غرفة خلفية حيث جلست إلى مائدة صغيرة أنيقة ، وسمعته يقول :

ـ ان جاك سيعمل الآن على تغيير العجلة .. أما أنت فسوف تسمحين لي بتقديم وجبة طعام خفيفة مكونة من العجة والجبن والمربى وبعض الشراب .

وشكرت للرجل كرمه ومروءته .. وسرعان مـــا فرغت من الطعام ..

وأقبل جاك معلناً أنه فرغ بدوره من تغيير العجلة واصلاح الأخرى المعطلة في الوقت نفسه .. وفي تلك اللحظة سمعت من مكاني صرير توقف سيارة مسرعة ، ثم صوت ريتشارد وهو يقول لصاحب المشرب الذي أسرع لاستقباله :

ـ لا .. لا .. لا أريد أن أشرب شيئاً .. شكراً .. انـــني متعجل جـــداً .. ولكنني توقفت فقط لأسألك هل رأيت سيارة انجليزية تمر من هنا وتقودها سيدة شابة في ثوب أخضر ؟ أما السيارة فلونها أخضر قاتم ..

وكتمت أنفاسي وأنا أسمع صاحب المشرب يقول بصوت الذي يفكر :

ـ سيارة خضراء قاتمة .. تقودها سيدة بثوب أخضر ؟

ـ نعم .. نعم ..

ـ آه .. أعتقد هذا .. لقد رأيت سيارة بهذا اللون ، مكشوفة تمر من هنا منذ عشر دقائق تقريباً .. وقد لفت نظري إليها السيدة التي كانت تقودها ..

ـ شكراً .. شكراً ..

وسمعت حفيف أوراق مالية تنتقل من يد إلى يد .. وبعد انطلاق السيارة أقبل صاحب المشرب باسماً وهو يقول :

ـ يمكنك الآن أن تستريحي كما تشائين حتى يبتعد عنك تماماً ..

ثم أردف قائلاً :

ـ ألا يحسن أن تعودي من حيث أتيت حتى تضلليه تماماً ؟

ففكرت برهة فقلت بعد أن قررت ألا أسمح لريتشارد بمطاردتي بـــين ربوع أفينون :

ـ لا .. هذا غير ممكن .

ثم عدت أقول :

ـ هل هناك من طرق متفرعة تؤدي إلى مارسيليا ؟

ـ نعم .. هناك ثلاثة طرق فرعية بعد وصولك إلى نقطة الأساسين ..

ـ وبعدها ..

ـ يمكنك دخول مارسيليا من طرق فرعية جانبية ..

ـ أوه .. شكراً جزيلاً يا سيدي .. انني لن أنسى لك هذا الجميل .

فأشرق وجه المكتنز وقال وهو يفرك يديه :

ـ اننا دائماً في خدمة السيدات الجميلات .

وبعد أن كررت له الشكر وأجزلت له ولمساعده جاك العطاء ، انطلقت بالسيارة في المرحلة الأخيرة الباقية على مارسيليا .. وكنت قد قررت أن أذهب إلى أقرب فندق صغير في شارع جانبي، ثم أتصل تليفونياً بصديقتي لويز أطلب منها الحضور بحقائبنا ، وهكذا أنفض يدي تماماً من مأساة دافيد وأبيه .

وبدأت أقترب من مدخل مارسيليا .. ورأيت من بعيد مركبات الترام وهي تمر في شارعها الرئيسي .. وتنهدت في ارتياح وأنا أدرك أن من المستحيل على ريتشارد أن يعثر علي في مدينة مزدحمة مثل مارسيليا طالما ابتعدت عن شارعها الرئيسي الذي يمر به جميع الوافدين إليها من أنحاء المعمورة .

وحانت مني نظرة إلى المرآة الجانبية ، وإذا أفاجأ برؤية السيارة البنتلي الرمادية تبرز في طريق جانبي لتسير ورائي مباشرة !

وشعرت باليأس والاستسلام .. إذا لم يكن في مقدوري أن أفعل شيئاً بعد أن انتصر علي ريتشارد بذكائه الحاد .. فلا شك أنه أدرك ، من لهجة صاحب المشرب ، أو من سمات وجهه ، انه كان يكذب عليه .. وإلا فكيف قرر ان يكمن في منعطف قريب من مدخل مارسيليا لانتظاري ؟

ومضيت في طريقي بالشارع العام المزدحم بمختلف وسائل المواصلات وأنا لا أكاد أفكر في ريتشارد .. ولماذا أفكر فيه وقد أصبح في غير مقدوري أن أفعل شيئاً .

ولم يخطر ببالي قط أن ألجأ إلى تلك الأساليب السينمائية ، فأحاول الهرب من ريتشارد عن طريق اشارة المرور .. ذلك انه كان في مقدوري أن أكسر هذه الاشارة ، فسيكون في مقدور ريتشارد أن يفعل نفس الشيء .. وعدا هذا فان أية مخالفة للمرور قد تؤدي بي إلى مركز الشرطة حيث أضطر إلى ذكر الفندق الذي أنزل به في افينون .

ولاحظت وأنا أمضي بسيارتي في زحمة المواصلات أن ريتشارد يمضي ورائي بمسافة لا تزيد عن عشرين قدماً .. وقد تقل أحياناً إلى خمسة أقدام . وهكذا رأيت انه لا جدوى من محاولة الهرب منه . ولكنني لم أكن أتوقع أن تقع معجزة تتيح لي فرصة الافلات من مطاردته ..

لقد اختفت السيارة الرمادية من ورائي فجأة .. وعرتني الدهشة .. وتوقفت عند اشارة للمرور والتفت ورائي ، ورأيت ما حدث ..

كانت معجزة حقاً ..

لقد خرجت سيارة نقل من طريق جانبي ، وفيما هي تنحرف في الطريق العام ، كادت تصطدم بسيارة ريتشارد الذي ابتعد عنها ، ولكنه أوقع نفسه

بينها وبين قاطرة ترام كانت تمر في تلك اللحظة . وانحشرت سيارته بين الترام وبين سيارة النقل، وتوقفت حركة المرور .. ورأيت الناس يسرعون ويتجمعون حول الحادث كالمعتاد ..

وابتسمت لنفسي وأنا أدرك أن ريتشارد لن يتخلص من هذا المأزق قبل نصف الساعة بالأقل .

وانحرفت بسيارة إلى طريق جانبي ، ورحت أنعطف يميناً ثم يساراً .. ثم يميناً حتى رأيت عدداً من السيارات المختلفة واقفة للاصلاح أمام (جراج) ، فانحرفت إليه ودخلت إلى أعماقه ، ثم هبطت وأغلقت السيارة ، ووجهت تعليماتي إلى صاحب الجراج الذي أسرع إلي ثم دسست البطاقة التي سلمها لي وعليها اسم الجراج وعنوانه ، في حقيبة يدي ، وخرجت إلى ضوء الشمس في شارع خلفي .. وحرصت على عدم السير في الشوارع العامة ، وظللت سائرة حتى رأيت فندقاً صغيراً ، فدخلته وسجلت اسمي واستلمت مفتاح غرفة بالطابق الثالث حيث قادتني ربة المنزل إليها ..

ودخلت الغرفة ، وأغلقت الباب من الداخل بالرتاج ، وتهالكت على الفراش في اعياء ودون أن أقوم بأية حركة لمدة عشر دقائق . وكانت النافذة مغلقة تمنع عني جلبة تلك المدينة – التي عرفت باصطخابها من بين مدن أوروبا كلها – وكان ملحقاً بالغرفة حمام خاص ، فنهضت واغتسلت وقد استرددت نشاطي ، ثم شربت ماء مثلجاً من اناء بللوري بجوار الفراش ، ثم ارتديت ثوب النوم الحريري الذي أحتفظ به في حقيبة يدي ، ثم رقدت على الفراش.. واستغرقت في النوم .

* * *

ونهضت من النوم قبيل السادسة مساء ، وبقيت برهة وأنا لا أدري أين أنا.

ولما تنبهت الى الحقيقة ، بقيت في الفراش مستمتعة بالراحة والاسترخاء ، ثم نهضت وارتديت ثوبي الأخضر المصنوع من قماش ضد التكمش ، وغادرت الغرفة وأنا أشعر بالجوع .

وخطر لي أن أطلب الطعام في الغرفة ، ولكنني تذكرت أنني لن أستطيع البقاء بها حتى أستدعي لويز إلي.. أي كان لا بد أن أخرج.. ولم يكن هناك أي خطر من خروجي ما دمت سأتجنب شارع كانيير الرئيسي .. وهو الشارع الذي إذا جلس على أحد مشاربه انسان ، مثل ريتشارد ـ فلا بد أن يرى جميع المقيمين في مارسيليا يمرون أمامه .

وهبطت إلى جوسق التليفون ، واتصلت بفندق تستيه ـ فيدين الذي كنت أنزل فيه مع لويز في أفينون .. وردت علي مديرة الفندق قائلة ـ حين سألتها عن لويز ـ أنها غير موجودة . وقبل أن أستطرد في الحديث ، انقطعت المحادثة ..

وتناولت وجبة عشاء خفيفة بالفندق، وخرجت إلى الطريق أتمشى، وكنت على ثقة تامة بأني بعيدة عن متناول يد ريتشارد بعد الابرة في كومة قش عن يد الباحث عنها .. ولكنني لم أحسب حساباً للمصادفات ، أو للحظ الذي يقبل على الانسان مرة ثم يدير عنه أخرى .

لقد ذهبت إلى رصيف الميناء القديم ، ورأيت الزوارق التجارية تحمل السائحين إلى جزيرة شاتوديف وتعود بهم في نزهة بحرية ممتعة ، واشتركت في هذه النزهة التي استغرقت نحو الساعة ، ثم هبطت إلى الميناء لأعود إلى الفندق .

وفيما أنا أسير ، شعرت بذراع رجل تلتف على ذراعي ، ثم بصرته يقول وهو يسير بجانبي في هدوء :

ـ الآن نستطيع أن نستأنف حديثنا .

الفصل الثامن

القصة الرهيبة

نظرت إليه في ثبات ، وقلت بلهجة حاسمة :

ـ يمكنك أن تستأنف ألف حديث وحديث معي . ويمكنك أن تطاردني ألف عام ، ولكن عليك أن تتأكد تماماً من شيء واحد ، وهو أنني لن أخبرك بشيء عن دافيد .. انني أعرف مكانه حقاً ، ولكنني لن أخبرك به مهما حاولت ومهما هددت .

ـ ولكن ..

ـ لا داعي للجدل .. لقد اعترفت تقريباً أنك قاتل .. فهل تظن أنني أضع صبياً مثل دافيد بين يدي قاتل حتى لو كان له قلب والد ؟ هل نسيت انك ضربته على رأسه ضربة صرعته في ليلة ارتكابك الجريمة ؟ فكر جيداً يا مستر بايرون ! . ان دافيد ـ هذا الصبي اللطيف ـ اكتسب حبي ومودتي ، واني لن أتردد في قتلك إذا مسسته بالشر .

وشعرت بالدموع الحارة تملأ عيني .. وسمعته يقول هامساً :

ـ يا إلهي !

وعدت أقول :

ـ حسبك انك أفسدت علي اجازتي .. لسوف أضطر إلى قطعها والعودة إلى موطني ..

ولم أستطع أن أتمالك نفسي من الانخراط في البكاء ، فطمرت وجهي بين يدي وبكيت في حرارة ، وكنا قد انحرفنا إلى شارع ضيق هادىء . ولما هدأت قليلاً ، سمعته يقول في رفق وهو يمسك بذراعي :

ـ هلم إلى مشرب قريب لنتحدث في هدوء ..

وعلى مائدة في ركن بمشرب أنيق ، قال ريتشارد بصوت رقيق :

ـ كيف حال دافيد ؟ هل هو بخير ! وسعيد ؟

فقلت وأنا أحسو شراباً منعشاً :

ـ انه بخير تماماً .. ولكنه ـ بقدر علمي ـ غير سعيد .. انه يشعر بالوحدة .. وبالخوف .

ـ بالخوف ؟ من ماذا ؟

ـ منك طبعاً .

فصمت برهة ، ثم ارتسمت المرارة على وجهه وبدت في صوته وهو يقول :

ـ مني أنا ؟ .. هل أنت واثقة من هذا ؟ .. هل قال لك هذا بنفسه ؟

وفجأة نظرت في وجه الرجل .. وحملقت فيه بقوة .. ثم قلت بصوت متهدج :

ـ اسمع يا مستر بايرون.. انني لا أصدق انك قتلت صديقك وانك ضربت ابنك على رأسه بمثل هذه القسوة . انني أعتقد انك تحب دافيد كل الحب .. أليس كذلك ؟

فارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة حزينة، وقال بعد أن أشعل سيجارة :

ـ انني أحب دافيد أكثر من أي شيء في هذه الدنيا .

واقبل النادل يتقاضى ثمن المشروبات وهو ينحني باحترام ، فألقى ريتشارد في الصفحة الفضية التي يمسكها بمبلغ كبير ، ثم قال بعد انصراف النادل :

ـ لا جدوى من الاعراب عن أسفي لما حدث ، ولكن هذا لا يمنعني من ابداء أسفي الشديد على كل حال ، لقد كنت غبياً قصير النظر .. كان ينبغي أن أدرك من اللقاء الأول معك أن انسانة مثلك لا يمكن أن تكون شريكة في العصابة التي تحاول تدمير حياتي منـــذ عام تقريباً . ولكي أكفر عن خطئي وحماقتي ، فاني أعدك بألا ازعجك بعد ذلك ولكن هـــل يمكن ان نمضي الى مكان آخر .. او نتمشى في مكان هادىء لكي اشرح لك الموقف كله !

ولما رآني مترددة اردف قائلاً :

ـ يهمني ان تعرفي كل شيء ..

وكانت اللهفة واضحة على وجهه وفي نبرات صوته ، ومن ثم قلت :

ـ اذا كان الامر يتعلق بدافيد ، فاني على استعداد للانصات إليك ، أما فيما حدث ، فيمكننا ان ننساه .. فلست انت المخطىء وحدك .. ربما اكون اكثر منك خطأ .

ـ ان خطأك يمكن تبريره بسهولة .

ـ اذاً ، وعدتك بألا أهرب من نافذة خلفية ، فهل تسمح لي بالدخول في غرفة الزينة لأضع بعض الدرور (البودرة) على وجهي !

فابتسم في رفق وأومأ برأسه .

ولما عدت وجدته مسترخياً في مقعده يدخن في هدوء ..

* * *

ومضينا الى الشوارع المظلمة المتفرعة من الميناء القديم . ثم استدرنا نحو البحر حتى وجدنا أنفسنا في شبكة من الشوارع المضيئة كلها الى كورنيش البحر. وهناك كانت المنازل تقوم على يسارنا وسور حجري خفيض يمتد على يميننا، وعلى مسافة بعيدة أمامنا كنا نرى تمثال العذراء يقوم على قمة نوتردام دي جارد .

وكانت البيوت مظلمة مليئة بالأسرار ، ومصابيح النور المتفرقة تلقي أضواء خافتة على الشارع الرصيف ، وكان البحر وراء السور الحجري يمتد الى ما لا نهاية تحت أضواء النجوم .

ووقفنا بجوار السور نتأمل منظر المياه الغارقة في الظلام ، وبعض الزوارق المضيئة من بعيد تتأرجح على الموج . وفجأة سمعت ريتشارد يقول :

– انني أريد ان تجيبي على سؤالين اذا أردت هذا .. بل اعتقد انك أجبت على احدهما وهو ان دافيد بخير ..

وهنا قلت بسرعة :

– أعتقد انك تريد بسؤالك الثاني ان تعرف أين هو .. حسناً .. انه في فندق تريستيه فيدين في افينون .

وشعرت بيده تقبض على معصمي بقوة ، وسمعت صوته وهو يقول بسرعة وبأنفاس لاهثة :

– شاريتي .. لماذا اخبرتني بمكان دافيد ؟ لماذا وثقت بي فجأة ؟ انني لم اخبرك بعد بكل شيء ، لم اشرح لك شيئاً ، انني حتى الآن لم اخبرك بأني كنت كاذباً حين قلت لك ان الذي يقتل مرة، يسهل عليه ان يقتل مرة أخرى. لم اقل هذا لك إلا لأفزعك ابداً وأجعلك تخبريني بمكان دافيد . لقد أسأت إليك وأفزعتك وطاردتك وأسأت معاملتك وافسدت عليك اجازتك كما قلت .. فلماذا بعد هذا كله وثقت بي واخبرتني بمكان دافيد قبل ان أسألك ؟

وشعرت بقلبه يدق كالمطرقة ويتردد صداه في قلبي . وحاولت ان أسحب يدي من يده وأنا أقول في اضطراب :

ـ انني لا .. لا اعرف .

ونظر في وجهي طويلا .. ثم اذا هو يضمني إلى صدره بقوة ويقبلني .

وتمتمت قائلة :

ـ أعتقد ان هذا هو السبب يا ريتشارد .. لأنني احبك .

فهتف قائلاً بصوت لاهث :

ـ أخشى ألا تصدقيني إذا قلت انني احببتك منذ رأيتك لأول مرة في معبد ديانا بمدينة تيمز ولعل هـــذا الحب هو الذي كان يدفعني لمطاردتك .. رغم .. رغم اني كنت أعتقد انك مشتركة في عملية اخفاء دافيد عني .

ولما هززت رأسي ، قال :

ـ هل كان دافيد هو الذي طلب منك أن تخفيه عني ؟

ـ نعم .

ـ لم أكن أعرف هذا ، ولهذا ظننتك شريكة مع العصابة .

ـ كنت أظن انني أقوم بواجبي لحماية دافيد بعـــد أن أحببته كصبي لطيف مهذب .

وفجأة ابتسم وقال :

ـ هل تتصورين ان السؤال الثاني لم يكن خاصاً بدافيد ؟

فنظرت إليه في دهشة وقلت :

ـ عجباً !!

ـ كنت أريد ان أسألك من هو جوني .

ومرت برهة صمت قبل أن أرد قائلة :

- ان جوني هو زوجي .

- زوجك ؟ !

- كان زوجي .

- آه .. انني آسف .

وبصوت هادىء تماماً قلت :

- تزوجته في أول شهور الحرب .. وكان طياراً بالسلاح الجوي .. وبعد عامين ، مات في اغارة على بادي كاليه .

وتهدج صوتي قليلاً وأنا أردف قائلة :

- سوف أخبرك بكل شيء عن جوني يوماً ما .. ولكن ليس الآن .

فنظر إلي مسرعاً وقال :

- لماذا ؟ لأنني أعربت عن حبي لك ؟

- لا .. ان حبك لي لا يغير شيئاً من الماضي . وأنا انسانة أنظر إلى الحياة نظرة واقعية فأنا لا أفكر الآن في اني كنت أسعد زوجة مع جوني . ولكن موته لا يعني أن أعيش نصف ميتة .. انه في عالمه الآخر لا يرضى لي هذا .. و ..

- ولكنني حين رأيتك أول مرة في معبد ديانا كنت تبكين !

- نعم .. كنت أبكي لأني تذكرت حياتي مع جوني ، ثم الفراغ الذي تركه بعد وفاته . أما الآن ، فلا أعتقد أن هذه الذكرى ستبكيني .. فأنا قد استطعت ان أبني معه حياة زوجية سعيدة ، وهذه التجربة تساعدني في القدرة على اعادة البناء من جديد بطريقة أفضل وأقوى .

- اوه .. انني أحبك يا شاريتي .. أحبك كما لم احب امرأة أخرى في

حياتي .. ما ألطفك وأرق مشاعرك وأنبل عواطفك وأرجح عقلك .. انني أبارك هذه المحنة التي أعيش فيها منذ عام لأنها السبب في لقائي بك ..

* * *

وراح القمر يبزغ في الأفق البعيد .. وعدنا الى الحديث ونحن واقفان الى الى سور البحر . وشرع يحدثني عن المأساة من البداية ، وكانت قصة رهيبة سوداء .

وكان ريتشاد بايرون — الميسور الحال — يعيش في مدينة دينتنج بمقاطعة سوري بانجلترا وكان قد نجح في عمله الجديد الذي بدأه قبيل الحرب كتاجر في التحف والعاديات والأثريات الثمينة . لقد بدأ هذا العمل كهواية ، ثم تحولت الهواية الى احتراف ، وأمكنه أن يكتسب شهرة واسعة وخبرة عميقة وسمعته يقول :

— وكنت أهوى بصفة خاصة العمل في تجارة المصنوعات الفضية القديمة والجواهر . ولكن هذه التجارة توقفت عند قيام الحرب ، فالتحقت بالقوات الجوية ، وفي هذه الاثناء تعرفت بصديقي توني ..

— توني ! !

— نعم .. توني باكستر .. الشاب الذي اتهموني بقتله .

— أوه !

— كان طياراً مساعداً معي في نفس الطائرة . وكان من ألطف وأوفى الاصدقاء الذين عرفتهم في حياتي ، وان مجرد التفكير في أنه يقع في غرام لورين .. !

– ولكنك وقعت أنت في غرامها ، وتزوجتها !

فرمقني بنظرة سريعة وقال :

– نعم .. تزوجتها ، لأن دافيد كان في الثانيـــة عشرة ، وكانت والدته ماري قد توفيت منذ سبع سنوات ، وقد ظننت .. أوه .. اللعنـــة على كل شيء .. لقد رأيتها بنفسك ، ولا شك انك تلتمسين الي العذر اذا أنا تزوجتها قبل .. قبل أن أختبر حقيقة عواطفي نحوها .

وأومأت برأسي وأنا استعيد في ذاكرتي جمال لورين المذهل ، أما هو فقـد استطرد يقول :

– كنت قد افتتحت فرعاً لتجارتي في باريس منذ عام .. وهناك التقيت بها .. أعني في مزاد مزدحم لبيع كمية كبيرة من المصنوعات والتحف الفضية . وكنت قد صحبت توني لأدربه على هذه التجارة حتى يصبح لي شريكاً يوماً ما .. ورأيت لورين هناك ، ثم التقيت بها بعد ذلك في حفلة ساهرة .. وتعارفنا .. وتكرر لقاؤنا . وانتهى الامر بالزواج . ومضينا الى بلدتي ديننج .

ورن الألم في نبرات صوته وهو يستطرد قائلاً :

– وأدركت من الشهر الأول انني أخطأت في هذا الزواج ، فقد كانت ، في أول الأمر ، كارهة للاقامة في انجلترا بعد أن اعتدت على الحياة الباريسية . ولكنني أصررت على الاقامة في ديننج من أجل دافيد .. ومن ناحية أخرى فشلت هي في اكتساب عواطف الصبي .. لقد أبت أن تشغل نفسها به أو تهتم بأمره . وكان هو لطيفاً مجاملاً رغم حداثة سنـــه فأبى ان يفضي الي بآلامه وتعاسته ، وبعد شهرين من الزواج ، أقبل توني لقضاء بضعة أيام معنا ..

وتوقف ريتشارد برهة ثم عاد يقول بصوت جامد كأنه يقرأ تقريراً للشرطة :

– وبعد وصوله باسبوع وجد مخنوقاً في فراشه ، مخنوقاً بحبـــل ستارة له مَقبض من العاج .. وكان على المقبض بصمات أصابعي ..

– هذا طبيعي .. لأنك كنت ترفع الستارة أو تسدلها بين الحين والآخر .

– نعم .. ولهذا اعتبر المحلفون هذا الدليل ضعيفاً جداً .. ولكنني فوجئت في أثناء المحاكمة بلورين تشهد ضدي قائلة انني كنت مجنوناً من فرط الغيرة حين عرفت أن هناك علاقة بينها وبين توني . وكنت أعرف انهـــا كاذبة . ولكن كيف كان في مقدوري أن أكذبها ما دامت تعترف على نفسها بوجود علاقة بينها وبين توني ؟ ولم يكن توني على قيـــد الحياة حتى يكذبها معي . وهكذا ركز المدعي العام مرافعته ضدي على أن الغيرة هي التي دفعتني إلى قتل صديقي الحميم توني ، وإلى ضرب ابني الصغير دافيد حـين نهض في منتصف الليل وذهب إلى الحمام لشأن ما ..

– وماذا قال دافيد في المحكمة ؟

– قال دافيد انه لمح في مرآة الحمام كم الرجل الذي ضربه من الخلف، وكان كم سترة بحرية زرقاء .. وأنا لا أملك مثل هذه السترة .. وكان هذا من الأسباب التي أضعفت أدلة الاتهام ضدي .

وبعد برهة صمت ، قال بلهجة مريرة :

– سوف أعفيك من سمـاع الحديث عن اجراءات المحاكمة ، وقسوة المحنة التي مررت بها حتى صدر الحكم ببراءتي .

وقلت :

– ان شهادة لورين ضدك معناها أنها أرادت أن تثبت الجريمة عليك .

فأومأ برأسه وقال :

– وهذا ما يحيرني ؟ لماذا أرادت أن تتخلص لورين مني بهذه الوسيلة ؟

وتذكرت عندئذ قول لورين لصاحبها في حديقة جبل روشيردي دوم .

« كان يجب أن يموت وننتهي منه » ! .

أو شيئاً في هذا المعنى .

وقلت :

– هل يعني هذا انها هي القاتلة .. وانها ..

– لا .. لقد كان القاتل رجلاً ..

– كيف تتأكد من هذا ؟

– من أقوال دافيد .. ان دافيد صبي حقاً .. ولكنه قوي الملاحظة ويتمتع بذكاء خارق .. وما دام قد قال في التحقيق أنه رأى ذراع رجل في سترة بحرية زرقاء .. فلا بد أنه رأى هذا فعلاً ..

– لعله أراد أن يبعد عنك الشبهات .

فهز ريتشارد رأسه وقال :

– عندما أفاق دافيد من الضربة في المستشفى لم يكن يعرف ان في الأمر جريمة ، وانما كان يظن أنه فاجأ – عند دخوله الحمام – لصاً .. ومعنى هذا أن مسألة ابعاد الشبهات عني لم تخطر على باله حين أدلى بأقواله للمحقق .

وخيم الصمت علينا برهة .. وهبت نسمات باردة من ناحية البحر ، وسرت

في جسمي رعدة خفيفة. ولكنني شعرت بيد ريتشارد الدافئة تمسك بيدي وتضغط عليها برفق، ثم سمعت صوته الهادىء وهو يقول :

– لماذا أرادت لورين أن تتخلص مني بهذه الوسيلة الرهيبة؟ هذا ما يحيرني!

فقلت في شيء من الشك :

– ألا يمكن أن .. أن ..

– لا .. لا .. لقد كان هدفها الأول والأخير أن تقضي علي .. ولما أفلت من حبل المشنقة دبرت لي خطة للقضاء علي بعد الأفراج عني مباشرة ..

وفي هذه المرة لم يكن الهواء البارد هو السبب في ارتعاد جسمي ! .

الفصل التاسع

« بقية القصة »

قال ريتشارد متمماً قصته بعد أن جلسنا في مطعم أنيق يشرف على البحر :

– بعد أن تم الافراج عني عقب المحاكمة ، سلمني شخص ما رسالة من لورين تقول فيها أنها تريد أن تقابلني في فندق كلاريدج ، فذهبت إليها فوراً حيث قالت ان لديها أنباء هامة ، أنباء سارة .. وكانت هذه الأنباء ، تدور حول وجوب عودتها إلى باريس وحول عدم الضرورة في اتخاذ اجراءات الطلاق ..

فقلت في دهشة :

– عدم اتخاذ اجراءات الطلاق ؟ لماذا ؟

– لأن زوجها الذي كان مفقوداً في الحرب ظهر فجأة . ومعنى هذا ان زواجي بها كان باطلا .

– وهل كانت صادقة في هذه الأقوال ؟

– لقد أطلعتني على وثيقة زواجها السابق ، وعلى رسالة من محاميها بباريس يخبرها فيها بظهور زوجها .

– ما هو اسمه ؟

– جيان .. جيان كذا .. كذا .. كذا .. فاني لا أذكر بقية اسمه ، لأنني لم أكن مهتماً بالأمر إذ كنت خارجاً على الفور من السجن ، وكنت في لهفة شديدة للعودة إلى ديننج حيث كان دافيد في انتظاري ..

– وماذا فعلت معها ؟

– قلت لها انني أرجو أن يكون زوجها السابق على قيد الحياة حقاً لأنني لا أريد أن أرى وجهها مرة أخرى في حياتي ، ثم اخبرتها بأن أي اتصال بيني وبينها بعد ذلك يجب أن يكون عن طريق المحامين ، وبعد أن أخبرتها برأيي فيها ، ألقت إلي بمفاتيح سيارتي الرولز قائلة انها في جراج محطة رومانور . وهكذا أسرعت بالمفاتيح واستلمت السيارة ، وانطلقت بها على عجل في الطريق إلى ديننج دون أن يخطر ببالي أن هناك خطة مدبرة لقتلي بحادثة في الطريق !

– حادثة ؟

– نعم .. كان هناك منعطف في الطريق العام قبل بيتي بنحو ميل .. وكان المنعطف يطل على مجرى بعيد الغور .. كالهاوية . ورغم ضيق الطريق فقد كان آمناً ، لأن السائر فيه يستطيع أن يرى السيارات الآتية من الناحية الأخرى عند المنعطف.. أي لم يكن هناك أي احتمال في اصطدام سيارتين فيه.. ولكني وأنا أنعطف بسرعة فوجئت برؤية سيارة تخرج من طريق جانبي وتقبل نحوي بسرعة فاضطررت إلى الانحراف لتفاديها وهنا وجدت عجلة القيادة تتخلخل في يدي وإذا بالسيارة تهوي بي إلى المحجر .

– أوه !!

– ولكن الله أنجاني ، ذلك ان باب السيارة انفتح وهي تتدحرج إلى

الهاوية ، واذا أنا أقذف خارجها ثم أصدم بصخرة تمنعني من السقوط .. أما السيارة فقد وصلت القاع واحترقت .

– لا شك انها كانت خطة محكمة !

– نعم .. لقد أيقنت أنهم عبثوا بعامود عجلة القيادة لتتخلخل في يدي عند أي انحراف مفاجىء وكانت هناك سيارة في انتظار وصولي إلى المنعطف لترغمني على الانحراف المفاجىء الذي يؤدي إلى سقوطي بالسيارة في هاوية المحجر .

– ألا يمكن أن يكون الأمر بمجرد حادثة عارضة ؟

– لا .. لا .. لقد استدعتني لورين لتعطيني المفاتيح وتتأكد انني سأستقل سيارتي وكانت تعرف أني ملهوف للعودة إلى ابني في دينتنج . وهناك بالقرب من المنعطف جوسق تليفون عمومي . ولا شك أنها اتصلت بشريكها المنتظر بالسيارة وأخبرته بأني في الطريق إليه . ومن المؤكد انه كان يعرّف لون سيارتي وطرازها .

– ولكن ألم يكن هو معرضاً للخطر وهو يقوم بهذه المحاولة ؟

– ان الذي يدبر ارتكاب جريمة عليه أن يواجه أخطارها .

– وهل عرف رجال المباحث أمر عجلة القيادة المخلخلة ؟

– لا .. لقد تحطمت السيارة واحترقت . ولهذا أبى رجال الشرطة أن يصدقوني حين قلت ان هذه الحادثة مدبرة لقتلي . لقد أراد أن يعرفوا السبب ! لقد قلت في المحاكمة ان مقتل توني كان الهدف منه ارسالي إلى المشنقة . ولكن لماذا ؟ هذا ما لم أستطع أن أجيب عليه . ولما قلت أن هذه الحادثة كان الهدف

منها القضاء علي ، عاد السؤال : لماذا ، ولم أستطع مرة أخرى أن أجد الإجابة المقنعة . والأسوأ من هذا أنني لاحظت ان أفكار رجال الشرطة بدأت تتجه إلى نواح أخرى فيما يخصني ..

– أية نواح تعني ؟

– نواحي الرغبة في الانتحار !

– الانتحار ؟ ..

– نعم .. لقد بدأوا ينظرون إلي نظرتهم إلى رجل فقد عقله بعد فضيحة المحاكمة ، وقد أخذت الصحف تلمح إلي هذا الاحتمال .

– وماذا عن دافيد ؟

فقال بحرارة :

– كانت آخر مرة رأيت فيها دافيد عندما قبضوا علي . ولم أشأ أن أجعله يزورني في السجن ولما حملوني إلى المستشفى بعد الحادثة ، رحلت لورين إلى فرنسا .. ولكنها لم ترحل بمفردها ، وانما صحبت دافيد معها .. والعجيب ان دافيد لم يأتي لزيارتي في المستشفى .

فقلت في دهشة :

– ولكن .. ما معنى هـــذا يا ريتشارد ؟ . لا شك ان دافيد لم يصدق مسألة الرغبة في الانتحار ، ومن المؤكد انه يؤمن ببراءتك فلمــاذا ذهب مع لورين ؟

فهز ريتشارد كتفيه وقال بصوت متوتر النبرات :

– انني لا أدري .. أعتقد انه رأى انها – كزوجة أبيه اذا لم تكن أخبرته ببطلان الزواج ، من حقها أن تتولى رعايته أثنــاء مرضي . وهو – في جميع الأحوال – صبي لا يستطيـع الا أن يفعل ما يطلب منه .

– ولكن لماذا لم يكتب إليك؟ لماذا اضطررت الى اقتفاء آثارهم؟ لماذا لم؟..

وازدادت المرارة في صوته وهو يقول :

– انني لا أدري يا شاريتي .. وهذا ما يزعجني ويفقدنيَ صوابي لم أعد أهتم بلورين أو بعصابتها أو محاولاتهم قتلي . وانما كل اهتمامي الآن ينصب على دافيد .. بابني الوحيد .. أريد أن أراه وأشرح له كل شيء . فـلا شك أنهم أقنعوه بأني قاتل، وبأني مجنون ، وان من مصلحته الابتعاد عني بقدر الامكان .

فأومأت برأسي وقلت :

– نعم .. لقد بدا لي انه خائف منك جداً .

ولما رأيت الألم يزداد عمقاً في عينيه قلت بعطف شديد :

– انني لا أريد أن أزيد آلامك يا ريتشارد .. ولكن لا بد أن هناك سراً وراء هذا كله . وعلينا أن نعرف هذا السر .

– اننا لن نعرف هــــذا السر حتى نحصل على مزيد من الحقائق ، وعليك الآن أن تخبريني بكل شيء عن دافيد ولورين .. لا تهتمي بمشاعري الخاصة .. قولي كل ما تعرفينه منذ أن رأيت دافيد ولورين ..

وتذكرت الحديث الذي جرى بين لورين وذلك المدعو مارزدن في حديقة جبل دي دوم ثم قلت :

– هل تعرف رجلا يدعى مارزدن ؟

– لا .. لا أذكر اني أعرف رجلاً بهذا الاسم ، ماذا تعرفين عنه ؟

فحدثته بما سمعت في تلك الحديقة الجميلة ، وذكرت له كيف قال ذلك الرجل ، مارزدن ، للورين انه هو الذي انقذها من تلك المحنة ، وانه هو الذي خرج بها من انجلترا الى فرنسا ، وانه هو الذي يشرف على أعمالها ومشروعاتها.

فقال ريتشارد :

– ان هذا يدل على وجود رجل مع لورين .. وعلينا أن نعرف من يكون هذا الرجل وما هو علاقته بزوجها السابق جيان .. اذا كان ذلك الزوج قد ظهر حقاً .

ثم أردف قائلاً :

– انني قد عهدت الى أحد المخبرين الخاصين للقيام ببعض التحريات لصالحي في باريس ، وإلى أن نعرف المزيد من الحقائق ، فلن نستطيع أن نعرف السر في كل ما حدث .

* * *

وفيما نحن نشرب القهوة ، أخذت أحدثه بكل ما أعرف عن دافيد وزوجة أبيه ، وبكل ما لاحظته في الفندق ، وبكل ما سمعته من المسز بالمر ، وبالحالة التي كان عليها دافيد في مدينة تيمز بعد أن لمح أباه ، وبالرجل مارزدن الذي كان في السيارة العامة ليراقبني مع دافيد أثناء زيارتنا لمدينة تيمز .

وأخذ ريتشارد بايرون ينصت في صمت وهو يرسم بأصبعه خطوطاً متشابكة على المائدة وأخيراً قلت :

– أرأيت ؟ هذا هو السبب في تصرفاتي معك . كنت أظن ان دافيد في

حالة فزع منك ولا يريد أن يراك . ولهـــذا كنت حريصة على أن أضللك بعيداً عنه .

ثم أردفت قائلاً :

– واسمح لي أن أقول انني أحببت دافيد منذ أن التقيت به .

وأرسل ريتشارد إلي نظرة جعلت الدماء تتصاعد إلى وجهي ، وعـاد هو يخط بأصبعه على المائدة ثم يقول في بطء :

– اننا لا نعرف بعد لماذا رحل مع لورين دون أن يترك لي كلمة ، ولماذا بدا لك خائفاً مني ؟ هـــل تتصورين أنني ظننت في أول الأمر أنهم قتلوه حتى تلقيت ذلك الخطاب الذي بلا توقيـع ..

– خطاب بلا توقيـع ؟

– كنت أتلقى عشرات من هذه الخطابات بـــلا توقيـع كلها سباب وشتائم واتهامات ولكن الخطاب الأخير ذكر أن دافيد موجود بباريس . ولما كانت مديرة بيتي قد أكدت لي أن لورين أخذت دافيد معها إلى فرنسا ، فقد أيقنت أنني سوف أعثر على ولدي هنا . ولهـــذا جئت مع سيارتي وأقمت في مسكني الخاص في باريس حيث وجدت رسالة أخرى في انتظاري .

– ممن ؟

– من لورين . من العزيزة لورين .. هكذا وقعت عليها .

– وهل كانت عن دافيد ؟

– نعم .. قالت انها تريد أن تتحدث بشأن مستقبله . ولكن بما ان دافيد

لا يريد رؤيتي وبما انها لا تريد مواجهتي في الوقت الحاضر ، فقد رأت أن تؤجل المقابلة الى وقت آخر . . وكانت الرسالة صادرة من مدينة ليون .. ولهـــذا سافرت إليها .

– وماذا فعلت ؟

– أمضيت يومين في البحث عنها وعن دافيد ، واستطعت أن أعرف من تحرياتي في الفنادق انها اتجهت نحو الجنوب ، فانطلقت وراءهما حتى وصلت الى تيمز حيث التقيت بك .

فابتسمت وقلت :

– لا عجب انك كنت تريد قتلي حين وجدتني أراوغك وأرفض ان أدلك على مكان دافيد !

– كنت أظن انك شريكة في هذه المآمرة المدبرة ضدي . آه . ما أشد أسفي على قسوتي معك يا عزيزتي شاريتي ؟

– الواقع أنني كنت خائفة منك بعد أن فهمت من المسز بالمن انك .. انك .

– انني ماذا ؟

– انك مجنون !

ثم أردفت قائلة في سرعة :

– ولكنني الآن أعرف إلى أي حد أنا مخطئة .

وقال وهو ينظر إلي بحنان :

– اسمعي يا شاريتي .. هل قال لك دافيد شيئاً جعلك تعتقدين اني مجنون؟

فقلت مرتبكة :

- لا .. لا أظن .

- انك تكذبين يا شاريتي .. لقد أصبحت أعرف من لهجتك ان كنت صادقة أو كاذبة . هل قال لك دافيد انني مجنون ؟

- نعم ..

- لا تحزني من أجل هذا . لقد فهمت الآن لماذا لا يريد مقابلتي .. لقد جعلوه يؤمن بأنني مجنون وأنني خطر على حياته .

- وماذا تنوي أن تفعل ؟

- نعم ربما حدث شيء أو ربما رأيت شيئاً يفسر لنا كل هذه الأحداث .

وشردت نظراته طويلاً ثم قال وهو يهز رأسه .

- لا لا .. لا أظن ان ما رأيت في ذلك اليوم له علاقة بكل هذه الأحداث؟

فقلت بلهفة :

- ماذا رأيت ؟

- حادثاً رهيباً يدل على قسوة ضابط ألماني .. بل على جنون هذا الضابط الذي كان من غلاة النازية ! ولكنني لا أرى أية علاقة بين هذا الحادث وبين محاولات لورين وعصابتها للقضاء علي !

- انهم يا ريتشارد لا يزالون يحاولون القضاء عليك، وأعتقد انهم يتخذون من دافيد طعماً لاستدراجك إلى المكان المناسب للقضاء عليك . ولكن هل لديك

مانع في أن تذكر لي الحادث الذي رأيته خلال الحرب . من يدري .. فربما ألقى هذا الحادث ضوءاً على هذه الأحداث الغامضة .

فعاد يهز رأسه ويقول :

– لا أظن .. ولكنني سأسرده عليك بايجاز .. كنت أنا وتوني في قطار تحت الحراسة للمضي بنا إلى فرانكفورت للتحقيق معنا بعد أن سقطت طائرتنا في الخطوط الألمانية . وتوقف قطارنا في الطريق ليسمح بمـــرور قطار سريع أوشك أن يقبل من فرانكفورت . وتوقف القطار السريع بجوار قطارنا ريثما يتم اصلاح عطب مفاجىء في خطوط سكة الحديـــد . وفي خلال هذه الفترة أدركت أنا وتوني أن القطار السريع مليء بأسرى من دول أوروبا الشرقية في طريقهم إلى معسكرات التعذيب والقتل الجماعي ، وفجأة رأينا بعض هؤلاء الأسرى يحاولون الهرب وقد فقدوا عقولهم من فرط الرعب ، و .. و ..

وصمت ريتشارد وأخفى وجهه بين يديه . فقلت :

– وماذا حدث ؟

– سوف أعتمد عليك في اقناعه بغير هذا .. لا شك انه يثق فيك ، ومن الممكن أن تؤكدي له ان كل ما يقال عني كذب وافتراء .

– هل يمكنني هذا بعد أن ساعدته في الهرب منك بعـــد رؤيته لك في تيمز !

– نعم .. عليك أن تعودي إلى أفينون وأن تتحدثي معه وأن تقنعيه بأنني عاقـــل كأي انسان آخر ثم تدبري أمر اللقاء بيني وبينه وسوف أعرف كيف أشرح له كل شيء .

– وبعد ذلك ؟

– سأسترده من لورين وأعود به إلى بلدتي دينئنج ..

فنظرت إليه برهة وقلت :

– هل تعتقد ان الأمر بهذه البساطة ؟ إذا كانوا مصرين على قتلك ، فان دينئنج لن تكون بعيدة عليهم !

فوضع يده على جبينه وقال :

– من الخير لي أن أموت في بلدتي وبين قومي على أن أموت مشرداً في بلاد العالم ، ولكني حتى الآن .. لا أدري .. لا أدري لماذا يريدون قتلي ؟ انني لم أرتكب في حياتي جريمة ضد أحد .. لم أسيء إلى أحد .. لقد عشت حياتي كلها مواطناً صالحاً أعيش في حدود القانون وأحترم حرية الغير وأؤدي واجباتي على الوجه الأكمل .. فلماذا يريد هؤلاء الناس قتلي ؟ لماذا دبروا الجريمة للقضاء علي ؟ ولماذا دبروا حادثة التصادم وأنا في الطريق إلى دينئنج ؟ ولماذا احتفظوا بابني وجعلوه يعتقد أنني مجنون ؟ انني كلما فكرت في هذه المحن أكاد أفقد عقلي ..

وقلت بعد برهة :

– لا بد أن هناك سبباً قوياً .. حاول أن تتذكر شيئاً في حياتك .. في أثناء تطوعك بالسلاح الجوي خلال الحرب ..

وصمت فجأة ثم قال :

– خلال الحرب ؟ !

– رأيت أنا وتوني الضابط الكبير المكلف بحراسة هؤلاء الأسرى يصوب

مدفعه الرشاش عليهم ويطلق نيرانه ، وإذا هم يتساقطون كما يتساقط الذباب ، أمام رشاش المبيدات ..

وهتفت في رعب :

— يا للهول !

— ولم أستطع أنا وتوني أن نحتمل هذا المنظر فأخذنا نصرخ ونلقي بأنفسنا على حراسنا محاولين التحرر من قيودنا والهجوم على ذلك الضابط الألماني المتوحش .

— وهل رآكم ذلك الضابط ؟

— نعم .. لقد أمر أن نقدم إليه .. وأدركنا أن نهايتنا دنت حين رأيناه يرفع مدفعه ويصوبه إلينا وقد التمع الجنون في عينيه . ولكن الحارس المكلف بنا أسرع إليه وتحدث إليه في حدة .. وقد فهمنا بعد ذلك أن مقتلنا على هذه الصورة سوف يضع حارسنا في مأزق حرج لأن هناك تعليمات مشددة بالتحقيق معنا أمام لجنة عليا من النازي في فرانكفورت .. ولولا هـــذا لما تردد ذلك الضابط المتوحش في قتلنا ؟

وصمت ريتشارد برهة قبل أن يستطرد قائلاً :

— وأنا لا أنسى مـــا حييت منظر ذلك الضابط .. ولا منظر يده اليمنى المعقوفة على زناد المدفع .. كانت يداً مشوهة يمتد على ظاهرها اثر جرح رهيب أزرق اللون .. يمتد من المعصم إلى ظفر الابهام !

— وهل عرفت اسمه ؟

— نعم .. ماكس كرامر .. وأذكر أن توني صاح به بالألمانية عندما أيقن من النجاة قائلاً انه سوف يلتقي به يوماً بعد الحرب ويسوي معه الحساب ..

– وماذا كان شكل كرامر هذا ؟

– كان رجـــلاً في نحو الثلاثين ، ضخم الجسم ، أشقر ، مكتنز الوجه وحشي النظرات .

وهنا هززت رأسي وقلت :

– انه لا يشبه أي رجل من الجالسين حول لورين في الفندق .

ونظر ريتشارد إلي برهة ثم قال :

– ما كان ينبغي أن أذكر لك هذه الحادثة الرهيبة .. لقد انتهت الحرب بكل ويلاتها ولا أظن أن لهذه الحادثة أية علاقة بما نحن فيه الآن .

فقلت وأنا أومىء برأسي :

– هذا هو رأيي أيضاً .

ونظر ريتشارد في ساعة يده وقال :

– حسناً .. لقد حان موعد النوم الآن .. هل تحبين أن تشربي شيئاً قبل أن ننصرف .

– لا .. شكراً .

– حسناً .. علينا الآن أن نقرر ما سنفعله غداً ثم أصحبك إلى الفندق .

واتفقنا على خطة بسيطة .

كان علي أن أعود في اليوم التالي إلى أفينون وأخبر لويز بكل ما حدث ، ثم أقنع دافيد للموافقة على مقابلة أبيه في مكان ما .. وبعد أن أسلم الابن للوالد ،

انتقل مع لويز إلى فندق في مدينة أبكس حيث أنتظر عودة ريتشارد إلي بعد أن يضع ابنه دافيد بين أيدي أصدقاء له .. هم آل ديكستر الذين يقيمون في مدينة هيريز .

وقال ريتشارد :

ــ وبعد أن اطمئن على دافيد ، سأعرف كيف أواجه هؤلاء المجرمين ..

ونهضنا وخرجنا من المطعم ونحن لا ندري ان الأقدار كانت تضحك ساخرة من خطتنا الساذجة .

الفصل العاشر

السوار الفضي

وانحرفنا إلى شارع هادىء بعيد عن ضجة شارع كانبيير، وقال لي ريتشارد:

– اين وضعت سيارتك ؟

وأخرجت من حقيبة يدي بطاقة الجراح ، وكان مكتوباً عليها « برجيير اخوان : ٦٩ شارع دي بوشير » ثم قلت :

– انني لا أعرف أين يقع هذا الشارع !

– انني أعرفه . لسوف أعود إليك في الفندق غداً صباحاً .. في الثامنة والنصف ، وبعد أن نتناول الافطار في مكان ما ، نمضي الى الجراج لتأخذي سيارتك ثم نعود الى أفينون .

وأردف باسماً :

– وأرجو ألا تهربي مني مرة أخرى .

– لا .. لا ..

– لقد أرهقتني في مطاردتك.. والواقع انك تجدين القيادة الى حد مذهل.. من علمك اياها ؟

– جوني .

– أوه .. اذن لا عجب !

– – كان من هواة سباق السيارات .

– انه لم يقصر في تعليمك كل فنون القيادة السريعة .

– هل دفعت أجر اقامتي في فندق لابو ؟

– كان علي أن أفعل هذا ما دمت قد زعمت لصاحبه انني زوجك .

ثم توقف فجأة وهتف قائلاً !

– يا للعجب !

– ماذا حدث ؟

وكنا نسير في شارع جانبي هادىء خال من المارة .. وكانت المنازل والحوانيت والمخازن المغلقة تقوم على جانبيه .. وكانت الاضاءة فيه خافتة .. ولكنني رأيت ريتشارد واقفاً أمام واجهة متجر من متاجر بيع العاديات .. وكانت الواجهة تعرض أشياء كثيرة مختلفة أوان نحاسية ، وأوعية دقيقة ومقاعد وموائد صغيرة ومصنوعات عاجية ، وقرأت اللافتة الموجودة على باب المتجر فاذا هي « وبر فيل وسيا .. باريس ومارسيليا .. تجارة العاديات والتحف ».

وقلت لريتشارد :

– ماذا لفت نظرك هنا ؟

وأشار الى سوار من الفضة كان معروضاً في الواجهة على قاعدة من المخمل ، وكان السوار يلمع تحت ضوء مصباح كهربي . ولاحظت انه سوار من النوع التاريخي الثمين اذ كان منقوشاً عليه شعار أسرة من نبلاء فرنسا في العصور الوسطى .

وقال ريتشارد في دهشة .

– ما أعجب هذا ؟ ان هذا السوار هو نفسه الذي قدمته هدية للورين قبل زواجي منها ، لا بد أنها باعته في باريس .. ثم انتقل الى هنا .. ولكنني لا زلت في دهشة بالغة .

ولكنني قلت :

– اذا كانت قد باعته .. فلا بد انها باعته اليوم .. وفي مارسيليا .

فاستدار نحوي بسرعة وقال :

– لماذا؟ !

– لأني رأيته أمس .. أو على الأقل رأيت سواراً شبيه به .

– ليس هناك من سوار آخر مثله .. انه ايطالي الصنع من القرن الخامس عشر وعليه شعار الدوقة لوكريشيادي فالوتشي .. نعم .. لا يوجد في الدنيا سوار آخر مثله .

– اذن فهو نفس السوار الذي رأيته في معصم لورين صباح أمس .

فقال ريتشارد بصوت مرتعد مشوب بالقلق :

– اذا كانت لورين هنا في مارسيليا .. فلابد أن نعرف ماذا حدث لدافيد..

– انهم ولا شك قد عرفوا انك هنا فجاؤا ليدفعوا بك الى كمين ..

– اللعنة على كل كمين في الدنيا .. ان أمري لا يهمني بقـــدر ما يهمني أمر دافيد.اسمعي .

ثم نظر الى مدخل المتجر وقال لي هامساً وهو يبعدني عن الواجهة المضيئة :

– لسوف أدخل لأسأل صاحب المتجر عن الشخص الذي باعه هذا السوار.. ومتى ؟ ان فندقك يقع في الشارع الذي ينعطف عند نهاية شارعنا هذا اذهبي اليه فوراً واتصلي تليفونياً بصديقنا لويز في فندق ترستيه – فيدين واعرفي منها اذا كانت لورين قد رحلت عن الفندق وهـل المدعو مارزدن رحـل معها .. وماذا عن دافيد .. حاولي ان تعرفي منها كل ما يمكن ان تخبرك به .. ثم عودي الى هنا .. هل معك كفاية من النقود الصغيرة .

– نعم .. كثير .. ولكنني أرى ..

– لا داعي للجدل .. ان الأمر أخطر مما نظن .. أرجوك أن تسرعي ..

ووجدت نفسي أنطلق مسرعة في الطريق الى الفندق .. وسمعت ورائي باب المتجر يفتح ثم يغلق ..

* * *

وكان صوت لويز ، رغم المائة كيلومتراً التي تفصلنا ، واضحاً في التليفون:

– عجباً يا شاريق ؟ كنت أتوقع حضورك اليوم .. لماذا لم تحضري .. هل أعجبتك الاقامة في تلك القرية المهجورة ؟!

– اسمعي يا لويز .. هل يسمعك أحد وأنت تتحدثين في التليفون ؟

– انه البواب فقط .. وهو اصم كالحجر !

– حسناً .. اسمعي .. انني أتحدث من مارسيليا .

– من أين ؟ !

– اخفضي صوتك أرجوك .. من مارسيليا .. اسمعي يا لويز .. الوقت لا يتسع لأشرح لك كل شيء ، ولكن أرجو ان تجيبي على أسئلة قليلة .. ان الأمر خطير .. وأنا في موقف أشد خطراً ..

وفوجئت بلويز تقول لي بصوت هادىء :

– هل دافيد معك ؟

آه .. اذن فقد صدق حدس ريتشارد .. لقد رحلت تلك المرأة لورين مع دافيد وعاد صوت لويز يرن في التليفون :

ـ شاريتي .. لماذا لا تردين ؟

ـ اسمعي يا لويز .. هل تركت المسز بريستول ودافيد في الفندق ؟

-- نعم .. لقد رحلت المسز بريستول عن الفندق في حالة عصبية رهيبة .. كانت تصرخ وتقسم انك ، يا شاريتي ، خطفت دافيد .. وبلغ من اهتياجها ان خرج زوج المسز بالمر والفرنسي الجميل بول فاري والألمانيان للبحث عنك وعن دافيد في أنحاء مدينة أفينون .

- لويز .. هل معنى هذا ان دافيد هرب من زوجة أبيه ؟

-- نعم .. لقد ترك في هذا الصباح رسالة قصيرة لزوجة أبيه يقول فيها انه مضطر للرحيل .. ثم اختفى مع كلبه . واكتشفت المسز بريستول الرسالة في ساعة الظهيرة ومن ثم أقامت الدنيا وأقعدتها وقد اتهمتك يا شاريتي باختطافه ، أليس دافيد معك ؟

ـ لا طبعاً !

ـ عجباً !

ـ اسمعي يا لويز .. انني واثقة بأن دافيد هرب حقاً ، أم أن في الأمر سراً ؟

ـ لا أظن .. ان حالة المسز بريستول تدل على انه هرب حقاً .. وقد جاءت الي وطلبت مني ان أخبرها عن مكانك وكان وجهها شاحباً ، ويداها ترتعدان بشدة .

ـ وهل أخبرتها ؟

ـ لا لا طبعاً .. وكيف أخبرها وأنا لم أكن أعرف ؟

ـ انك رائعة يا لويز ..

– ولكن هذا الثناء لا يعوضني عن اضطراري لترك الفندق طيلة اليوم بسبب ما حدث من اضطراب وصخب ..

– وماذا حدث بعد ذلك ؟ ألا تزال المسز بريستول عندك ؟

– لا .. لقد رحلت بعد الغروب .

– بمفردها ؟

– لا أعرف .. انني لم أعد الى الفندق الا بعد العشاء . وقد استرحت حين لم أجد أحداً من النزلاء في الحديقة .

– حتى المدعو مارزدن ؟

– نعم لقد غادر الفندق في الصباح .

– هل غادره قبل اختفاء دافيد ؟ .

– لا أعرف ..

وبعد برهة صمت قلت :

– هل اقترح أحد ابلاغ الأمر لرجال الشرطة ؟

– نعم . ولكن المسز بريستول رفضت هذا الاجراء ، ولم تلبث ان هدأت واعتذرت عن الضجة التي أثارتها ، ثم قالت انها تظن ان دافيد أراد مداعبتها فقط ، وانها تكاد تعرف أين ذهب ، ولهذا فهي تعتقد ان الأمر ليس بالخطورة التي تستدعي الالتجاء الى رجال الشرطة ، ثم قالت انها ستذهب اليه ، وهكذا رحلت عن الفندق كما قالت المسز بالمر واستقلت قطار السابعة مساء الذاهب الى مارسيليا ، اسمعي يا شاريتي .. لو كنت مكانك لعدت فوراً الى أفينون .

– هذا ما سأفعله .. هل رحل أحد غيرها عن الفندق ؟!

ـ لا أعرف .. انني لم أجد في ساعة العشاء إلا أسرة المستر بالمر .. اسمعي يا شاريتي ، ماذا تعرفين عن هذا الموضوع ؟

ـ سأخبرك فيما بعد ، ولكنني لم أكن أعرف ان دافيد هرب من زوجة أبيه ! وطبعاً لا أعرف أين هو الآن .. هل كان معه نقوداً ؟

ـ لا .. وهذا هو السبب في انه أخذ سوار المسز بريستول الفضي الثمين ، ولم ينس ان يأخذ معه جواز سفره أيضاً . وقد ذكر في الرسالة التى تركها انه أخذ السوار ليرهنه وسوف يرسل قسيمة الرهن الى المسز بريستول .

وشعرت بقلبي يدق في صدري بقوة .. اذن فان دافيد الآن في مارسيليا ، وأن لورين في طريقها اليه ، وكذلك المستر مارزدن أو الشخص المشترك مع لورين في مؤامرتها .

وقلت للويز :

ـ يجب أن أسرع الآن يا لويز .. هل قال دافيد شيئاً آخر في الرسالة ؟

ـ لا .. لقد كانت المسز بريستول تلوح بالرسالة أمامنا جميعاً .. اخبريني يا شاريتي ..

ـ طاب مساؤك يا لويز .. سوف اتصل بك فيما بعد .

ـ اسمعي يا شاريتي .. انك لم تخبريني أين تقيمين فى مارسيليا ؟

ـ في بل أوبرج شارع ميرابل .

* * *

تركت جوسق التليفون واندفعت خارج الفندق ، وأسرعت عائدة الى متجر العاديات لألتقي بريتشارد وأخبره بما عرفت . وهناك وقفت في مكان مظلم أمام الواجهة التي كان السوار لا يزال موجوداً بها . ولما مرت لحظات دون أن يخرج ريتشارد ، خطر لي انه ربما غادر المتجر أثناء غيابي ، ولكن .. اذا كان قد غادر المتجر ، فلماذا لم يحضر الى الفندق ولماذا لم ألتــــق به وأنا في الطريق اليه ؟

هل تراه قد غادر المتجر من بابه الخلفي ؟

وحملقت في الواجهة ، وابتسمت لنفسي حين رأيت بصيصاً من الضوء تحت باب الغرفة الخلفيــة من المتجر .. اذن فلا يزال هناك أحد .. هــل أبقى في انتظار ريتشارد حتى يخرج ، أم أطرق الباب وأدخل ؟

وشعرت بالرعدة تسري في بدني .. ولم أدر هل كانت الرعدة من الخوف أو من القلق أو من البرد .. ولما طال وقوفي قررت أن أتقدم نحو المتجر .. ولست أدري ماذا كان سيحدث لو لم أسمع في تلك اللحظة صوت سيارة تنهب الأرض في الشارع ، فتراجعت في الظل ، وفوجئت برؤية السيارة تقف – بعد أن أطلقت صريراً مزعجاً – أمام المتجر ، ثم يفتح الباب وتهبط من السيارة – التي كانت مأجــورة – امرأة وتدفع للسائق أجــره ، ثم تمضي الى المتجر وتطرق الباب وتدخل .. ثم سمعت باب الغرفة الداخلية يفتح ويغلق ..

ومضت السيارة المأجورة في طريقها ..

أما المرأة فكانت لورين ..

وتسمرت في مكاني وأنا أعجب كيف استطاعت لورين أن تعرف مكان دافيد بهذه السرعة ، وتساءلت : « ترى ألا يزال ريتشارد داخل المتجر ؟ » ولم ألبث ان عرفت الاجابة على هذا السؤال . لقد فتح باب الغرفة الخلفية للمتجر .. وهي غرفة المكتب ، ورأيت بداخلها ثلاثة أشخاص : لورين وكانت واقفة تلوح بيدها في عصبية وتتحدث الى رجل كان جالساً وظهره ناحيتي ، وكان مرتدياً بذلة زرقاء في لون ملابس البحرية . ولم يكن ريتشارد وكان هناك رجل آخر أدركت انه صاحب المتجر .. وكان يتحدث الى لورين، ثم تقدم نحو الواجهة الزجاجية من الداخل ليسدل عليها الستارة حتى لا يرى أحد من الخارج ما يجري داخل المتجر .. وكان رجلاً أشقر ضخم الجسم ..

ولما مد يده الى الستارة ليسدلها ، كدت أصرخ رغماً عني ، لقد رأيت يده اليمنى مشوهة .. يمتد من معصمها جرح غائر أزرق اللون حتى يصل الى الابهام ..

انه الضابط الألماني السابق .. الضابط الوحشي .. ماكس كرامر ..

وان المتجر هو الكمين .

الفصل الحادي عشر

مؤامرة في الليل

وتوقفت برهة أحاول أن أركز تفكيري فيما ينبغي أن أفعل - وماذا كان في وسعي أن أفعل – حتى لو كان معي مسدس ! هل أذهب الى الشرطة ؟ وماذا أقول لهم بلغتي الفرنسية البسيطة ، وأي دليل في يدي يمكن أن أقدمه لتأييد اتهاماتي ، وهل سيبقى دافيـــد وريتشارد داخل المتجر حتى يحضر رجال الشرطة .

لا شك أن دافيد وريتشارد داخل المتجر .. داخل الكمين ! وما دام الأمر كذلك فيجب العمل على اخراجهما بأية وسيلة .

وتقدمت بهدوء نحو باب المتجر . وكان الشارع لحسن الحظ مهجوراً .. ولم يصدر أي صوت من داخل المتجر المغلق . ولكنني كنت قد لاحظت على مسافة يسيرة باباً صغيراً يؤدي الى حارة ضيقـــة تدور الى ما وراء المتجر ، فتقدمت بحذر نحو ذلك الباب ، ودفعته برفق وانفتح وأخذت أتحسس طريقي في الحارة المظلمة حتى رأيت نافذة صغيرة مضيئة ترتفع عن الأرضية بنحو عشرة أقدام .. ورأيت أمامها مدخل جراج للسيارات . وقبعت في مكاني

أرهف السمع خشية أن يكون في الجراج أحد . ولما اطمأننت الى خلو المكان ، تحسست طريقي مرة أخرى على ضوء القمر الخافت وأنا ابتهل الى الله ألا يكون ريتشارد قد مات !

وفجأة خفق قلبي بعنف حين رأيت بالقرب من النافذة ، على الارضية سائلاً كثيفاً يلمع .. وكدت أفقد صوابي وأنا أظن ذلك السائل الكثيف دماً .. وانحنيت بسرعة ولمسته بيدي ثم تنهدت في ارتياح .. لقد كان السائل زيت تشحيم السيارات .. ولكنني فوجئت بشيء آخر بجوار الجدار .. بكتاب ملقى .. فلما رفعته بين يدي ، وجدته كتاب « الرباعيات » للشاعر ت. س. اليوت .. نفس الكتاب الذي كان يـــقرأ فيه مارزدن في فنـــدق بلدة أفينون ..

اذن فمارزدن هنا .. في هذا المكان .. ولكن لماذا جاء الى الحارة الخلفية هذه ؟ أم لعل الكتاب سقط من النافذة .. نافذة الغرفة الخلفية للمتجر ؟!

وسمعت همهمة أصوات صادرة من تلك النافذة الصغيرة .. ثم سمعت صوت سيارة تتحرك في الجانب البعيد وتقف قليلاً أمام المتجر .. وقبعت في مكاني لا أريم .. وأخذ قلبي يخفق في عنف شديد وأنا أخشى أن تكون السيارة قد حملت جثتي ريتشارد ودافيد !

ولم أدر كم مضى علي في تلك اللحظة .. فقد خيل الي ان الزمن أما قد توقف أو انه يمر بسرعة رهيبـــة . ولكنني أفقت من ذهولي على همهـــة الأصوات الصادرة من النافذة فتلفت حولي ولمحت صندوقاً صغيراً في الجراج ، فحملته

برفق ووضعته تحت النافذة ، وصعدت عليه ، وأنا حريصة ألا أجعل رأسي تبدو من الخارج للجالسين في الغرفة .

وسمعت شخصاً يقول للورين :

– لماذا تتصرفين كأن الدنيا انقلبت رأساً على عقب يا لورين ؟ ألم يكن في مقدورك أن ..

وأومأت برأسي في ارتياح .. انهم لا يزالون يتحدثون عن ريتشارد ودافيد.. ولاشك انني سوف أعرف بعد قليل كل شيء عنهما .

وقالت لورين بصوت حاد :

– لقد كان الوضع لا يحتمل في الفندق ..

– ولكن ما كان هذا يحملك تفقدين أعصابك على هذا النحو ..

وازداد صوتها حدة وهي ترد قائلة :

– انك تتكلم بهدوء لأنك لا تعرف نوع الحياة التي عشتها في هذا العام الأخير ، عليك اللعنة انك تجلس وتشاهد ما يجري بيننا أحمل أنا العبء كله .. انني أطلب منك يا جبان أن تدعني وشأني بعد ذلك ..

جبان ؟! جبان الذي قال عنه ريتشارد انه زوجها الأول ، ان الصوت هو صوت الرجل الذي كان يحدثها في حديقة جبل روشيرديدوم .. أي مارزدن .

هل هذا يعني ان جيان هو مارزدن ؟ زوجها الأول ؟

أم هل يمكن أن يكون هذا الصوت لرجل آخر غير مارزدن ؟

انني لم أسمع مارزدن يتحدث أمامي مباشرة .. وكل ما أعرفه انني ربطت بين هذا الصوت وبين مارزدن حين رأيته في منعطف جبل روشيردي دوم بعد الحادثة التي سمعتها تجري بين لورين ورجل في حديقة الجبل العليا !

وتحدث رجل آخر بصوت عميق وبلغة فرنسية ذات لهجة غريبة جعلت من العسير علي أن أتتبعه بوضوح . وكان يقول بقدر ما فهمت :

– كفى هذا .. تمالكي نفسك يا لورين ، وأنت يا جيان .. لا تزيد من توتر أعصابها . لقد تصرفت بحملقة حقاً ، ولكن لم يحدث شيء خطير بسبب هذه التصرفات . بل ان ما حدث اليوم قد محى كل الأخطاء التي حدثت في تصرفاتكما من قبل .

وقال جيان بهدوء :

– لقد ساعدنا الحظ حقاً .. من ذا كان يصدق ان الصبي يدخل هنا بهذه البساطة ثم يتبعه أبوه !

وقال ذو الصوت العميق الأجش الذي كان ولا شك الألماني ماكس كرامر صاحب متجر العاديات :

– حسناً .. لقد حالفنا الحظ حقاً .. وهذا الحظ هو الذي صحح كل أخطائكما .

– اللعنة على كل شيء يا ما كس ..

اذن فهو ماكس كرامر حقاً .. ومارزدن .. أو جيان .. ولورين .. ان الأمور بدأت تتضح في النهاية بعض الشيء .

وسمعت الألماني ماكس يقول وهو يضرب مائدة أمامه بقبضة يده :

– انصتا الي الآن .. لم يعد هناك وقت للحديث عن الماضي وما فيه من أخطاء . ان علينا ان نتخلص الليلة من هذين اللعينين .. الأب والابن .. وبعد أن يعتبر رجال الشرطة أن مصرعهما حدث قضاء وقدراً بسبب حادث سيارة ، سوف أقدم اليكما بقية الأتعاب .

وقالت لورين بصوت ينم عن السخط ؟

– والمستندات ؟

– والمستندات أيضاً .. وبذلك يمضي كل منا الى حال سبيله .. أنتما في طريقكما ، وأنا في طريقي !

وقال جيان :

– حسناً .. ماذا علينا أن نفعل الآن ؟!

وقال كرامر :

– ان الصبي لا يزال منوماً .. لقد أعطيته جرعة منومة كبيرة .. وأعتقد أن بايرون لن يفيق من الضربة التي فاجأناه بها الا بعد فترة .. والآن .. لقد أعد كل شيء لالقائها في الهاوية الصخرية بالمكان المتفق عليه .. وسوف يتم العثور عليها بعد ذلك في سيارة بايرون .

– هل حصلت عليها ؟

– لقد وجدت مفاتيحها في جيبه مع بطاقة الجراج .. وهي في شارع بليربوت .

وقال جيان بصوت ينم عن الابتهاج :

– لسوف يعتقد الناس ان الصبي هرب ليلتقي بأبيه ، وان الاثنين أسرعا بالسيارة للرحيل الى ايطاليا – مثلاً – ولكن السيارة انقلبت بهما في تلك الهاوية الصخرية !

وقال كرامر باطمئنان :

– تماماً .. لقد أوقع الصبي نفسه في أيدينا بهربه .. وما أظن أن أحداً سوف يشك في الأمر .

وقال جيان :

– ولا شك ان الاصابات الكثيرة التي سيتعرض لها جسم ريتشارد سوف تخفي الاصابة التي أحدثناها في رأسه حين دخل علينا فجأة .

– وقال كرومر :

– تماماً .. لقد حمل أندريه الاثنين في سيارة نقـــل مغلقة منذ لحظات وسوف نلحق به في المكان المتفق عليه لنشرف على عملية القاء سيارة بايرون في الهاوية .. ان أندريه أحمق لا يحسن التصرف . ويحسن أن يلحق به أحدنا بسرعة ريثما أحصل أنا على سيارة بايرون من الجراج ..

ثم أردف قائلاً بلهجة آمرة :

– جيان .. هذه مفاتيح سيارتي .. انها في الجانب الآخر من الشارع .. أركبهـــا وأسرع وراء أندريه وأجعـــله ينتظرنا في مكان بعيـــد عن الأنظار .

– حسناً جداً .

وسأمضي أنا لاحضار سيارة بايرون ، واذا أفاق أحدهما قبل الأوان ، بقليل فعليك أن تتصرف بسرعة ..

– هذا ما سوف أفعله .

وقالت لورين :

– وماذا عني أنا ؟!

فقال كرامر :

– سوف تذهبين معي .. انني اريد من جيان أن يتفرغ تماماً لمهمته .

– حسناً جداً ..

وسمعت بعد ذلك صرير المقاعد وهم ينهضون .. وهم يستعدون لمغادرة المتجر في طريقهم الى قتل ريتشارد وابنه دافيد .. انهم سيذهبون لارتكاب جريمتهم بينما أبقى أنا هنا عاجزة .. آه لو كنت أعرف المكان الذي سيرتكبون فيه الجريمة .. يا الهي .. يا الهي رحمتك ..

وأخذت ابتهل بحرارة الى الله أن يساعدني .. أن يبين لي الطريق ويجعلني أعرف الى اين هم ذاهبون .

وفجأة سمعت جيان يقول ضاحكاً :

– ماكس .. انني لا أتذكر المكان جيداً .. هل هو أول طريق فرعي على اليمين بعد أو جبيل أم ثاني طريق .

وهتف ماكس قائلاً في حدة :

– يا للسماء ! الثاني . ان الأول ينتهي بكوخ على المرتفع الصخري .. وقد

يكون بالكوخ أحد الآن . أما الثاني فانه ينجرف في انحدار شديد متفرعاً أمام صف أشجـــار الشربين التي على اليسار . كم مـــرة سأصف لك الطريق .

– معذرة يا ماكس .. ليس من العيب أن أتأكد من المكان حتى لا نخطىء مرة أخرى .

وقال ماكس :

– هـــلم أسرعي يا لورين وارتدي معطفك . لم يعد لدينـــا وقت نضيعه .

وسمعتهم يغادرون المتجر ويغلقونه ورائهم .. وقبعت في مكاني برهة أفكر .. ان المكان المتفق عليه لارتكاب الجريمة يقع بعد أوجبيل .. أي في الطريق الممتـــد على شاطىء البحر نحو ايطاليا .. حسناً .. يجب أن أسرع الى سيـــارتي .. أين .. آه .. شارع بيـــشير رقم ٦٩ بيرجير اخوان !

وفيما أنا أتساءل خارجة من الحارة بعد انصراف المتآمرين ، اذا بجسم ثقيل يصدمني واذا أنا أقع تحته على الأرض وأشعر بأنفاسه الحارة على وجهي ، وكان صاحب هذا الجسم الثقيل هو الكلب روميل .. عرفني في الظلام فأسرع الي بعد ان استطاع أن يقطع الرباط الذي كان يشـــده الى مكان ما .

وأدركت ان دافيد كان دون شك قد ربط الكلب في مكان ما حين قرر ان يدخل ويرهن السوار في المتجر .. ولم يستطع الكلب المسكين ان يتحرر الا في تلك اللحظات . فماذا أفعل به ؟

وقررت أن أصحبه معي الى السيارة . ثم أضعه في المقعد الخلفي وأنا أنطلق الى المكان المقرر لارتكاب الجريمة .. ولم أندم على هذا القرار .. فقد كان لروميل الفضل في انقاذي من رجل سكير اعترض طريقي وأنا أجري في الشارع نحو جراج سيارتي ، ذلك ان السكير ما كاد يرى الكلب ويسمع دمدمته حتى انطلق هارباً في حارة جانبية .

وانطلقت مسرعة نحو الفندق الذي نزلت فيه بشارع ميرابل . وكنت آمل أن أعرف منه الطريق الى شارع بيشير الذي أودعت سيارتي في جراج به . ولكنني وجدت نفسي في تيه من الشوارع والحارات المتشابكة التي لا بد ان يضل فيها الطريق أي غريب عن المدينة .

ووجدت في النهاية جراجاً تقف أمامه سيارة يقوم باصلاحها أحد العمال وكانت ثمة محطة وقود (بنزين) تقوم بجوار الجراج مباشرة ، وتذكرت ان الجراج الذي أودعت فيه سيارتي لم يكن بجوار محطة بنزين .. ولكن ماذا علي لو سألت عامل هذا الجراج عن شارع بيشير ؟

وما كاد العامل يسمع اسم الشارع حتى قال :

– شارع بيشير ، انه شارع لا يليق بسيدة مثلك أن تسير فيه لاسيما في مثل هذا الوقت من الليل .

فقلت له في لهفة ورجاء :

– ولكن لا بد لي ان اذهب اليـه .. ان الأمر لا يحتمـل أي تأخير .. أرجوك أن تدلني عليه .

فهز العامل كتفيه وقال :

– من السهل ان أدلك عليه .. انه ليس بعيداً .. ولكن ..

– أرجوك يا سيدي .. لا تضيـع الوقت ..

– أخشى ان تضلي طريقك اليه .. اذا انتظرت عشر دقائق فيمكنني أن أصحبك ..

فتذرعت بالصبر وقلت !

– يا سيدي انني شاكرة لك هذا الكرم . ولكنني مضطرة الى ترك مارسيليا بسرعة ، ولابد لي من الحصول على سيارتي ..

– سيارتك ؟

– نعم .. انها في جراج بيرجير اخوان و ..

– انني أعرف هذا الجراج .. ولكنه مغلق الآن ..

– مغلق ؟! هل أنت واثق من هذا .

– طبعاً .. انه جراج اصلاح سيارات .. وهو يغلـــق أبوابه في الثامنة مساء .

ــ ان الأمر خطير يا سيدي .. ألا يعرف أحد أين يقيم صاحبه ؟

لا يا سيدتي .. لا أعرف أين يقيم صاحبه .. ولكن يمكنك أن تسألي عن محل اقامته من المتاجر أو البيوت القريبة من الجراج ..

فقلت يائسه :

ــ لا لا .. هذا قد يستغرق ساعات .. ألا أستطيع استئجار سيارة .. بأي ثمن .

وهز العامل كتفيه وقال وهو يعود الى عمله بالسيارة :

ــ لا يوجد محل لتأجير السيارات في هذه المنطقة ..

ووقفت متسمرة في مكاني وكأني أصبت بضربة أذهلتني عن كل شيء .. ان عجزي عن الحصول على سيارتي معناه ، موت ريتشارد وابنه حتماً .. حتى لو جأت الى الشرطة فان الادلاء بأقوالي واقتناع السلطات بكلامي يستغرقان وقتاً طويلاً تكون الجريمة قد تمت فيه .

وتحرك روميل بجواري وهز ذيله ، وهنا سمعت صوتاً يقول لي :

ــ المس سيلبورن ؟!

فاستدرت بسرعة لأرى أمامي رجلاً طويل القامة يقف باسماً وقد ارتدى بذلة فاقعة اللون وكان واقفاً بالقرب من محطة البنزين وقد قال وهو يخطو نحوي خطوة أخرى !

– المسز سيلبورن ؟ ! أليس كذلك ؟

وعرفته .. كان الفرنسي الجميل الذي ينزل في فندق ترتستيه – فيدين في أفينون وأكثر من هذا تذكرت أيضاً اسمه .. بول فاري !

وابتسمت آليا وقلت :

– مسيو بول فاري !

ورد الابتسامة منحنياً وقال :

– لم أكن أتوقع أن ألتقي بك هنا يا سيدتي.. ولكني سعيد جداً بهذا اللقاء .

ثم وقعت نظراته على الكلب روميل . وهنا التمعت عيناه بنظرة تعجب وقال بالانجليزية :

– اذن فهو أنت حقاً ؟

ثم ضحك وأردف قائلا :

– أنت التي سرقت الصبي ، أين أخفيته ، أخبريني ..

– أنا ، أنا ! ؟

وابتسم في دهاء بمكر وقال :

– انك لا تتصورين الحالة التي كان الفندق عليها هـــذا الصباح بعد اختفاء دافيد .

– انني .. ابي لم ..

– آه .. لا داعي للانكار .. لماذا فعلت هذا ؟ .. انني أريد أن أعرف بدافع الفضول فقط ، هل أخبرك بأنه لم يكن سعيداً مع .. مع زوجة أبيه ؟

– لا لا .. انني لم ، انني لم ..

– انك لم تقعي بعد في قبضة رجال الشرطة .. تصوري .. لقد ظننت انني لن أعرف مصير الصبي .. كنت مضطراً للسفر الى نيس الليلة .. ولكن هأنذا بمحض المصادفة أعرف أين الصبي الآن .. أليس هذا عجيباً ؟!

ولم أكن أتتبع حديثه بعد ان رأيته يلوح بيده لعامل محطة البنزين الذي هتف قائلاً أنه ملأ خزان البنزين وخزان الزيت !

وفتحت عيني في دهشة وأنا أرى سيارة بول فاري .. كانت سيارة من طراز مرسيدس .. طويلة خفيضة كأنها نمر يشد عضلاته لينقض على فريسته .

وقلت فجأة وأنا أشعر بالأمل يراودني :

– مسيو فاري .

– آه .. انى آسف .. كنت أمزح معك فقط .. يبدو انك في حالة اضطراب شديد !

– نعم .. هل أنت في الطريق الى نيس حقاً ؟

– نعم .

– هل يمكنك ان تحملني معك بعض الطريق ؟

– بكل تأكيد .. هل الصبي سيكون ..

– إن الأمر يتعلق به .. إنني أعرف مكانه .. أرجوك .. إن الأمر خطير جداً .. دعني أشرحه لك في الطريق .

وضغط على يدي وهو يقول :

– أنا وسيارتي تحت أمرك يا جيلق .. لا داعي للقلق .. لسوف نسرع حقاً لأن من العسير على سائق المرسيدس ان يكبح جماحها ..

وبعد لحظات كان روميل في المقعد الخلفي ، وكنت أنا بجوار بول فاري ، والمرسيدس تنطلق ، كالنمر ليلاً ، في الطريق البحري العام ..

الفصل الثاني عشر

سباق مع الزمن

كانت المرسيدس تنهب الطريق تماماً كما تنهب النمر غابة الليل .. وألقى بول فاري نظرة جانبية على وجهي وهو يقول :

– هل ترضيك هذه السرعة ؟

– لا ..

– أتريدين المزيد ؟

– نعم .

ورأيت الدهشة ترتسم على وجهه ، لقد كان يتوقع أن أطلب منه أن يخفف من هذه السرعة قليلاً ، ولكنه لم يكن يعلم أن زوجي الراحل كان من هواة سباق السيارات ، وأني كثيراً ما كنت أخرج معه للنزهة ، بمجرد النزهة ، بسيارة لا تقل سرعتها عن مائة كيلو متراً في الساعة .

وقال وهو يهز كتفيه :

– انني لا أضمن سلامتنا اذا ازدادت السرعة عن هذا القدر .

– انني آسفة .. كل ما أرجوه ان ألحق بسيارة سبقتنا .. ولست أدري كيف أشكرك على هذا الجميل !

ثم أردفت قائلة :

– لا شك أن من حقك أن تعرف شيئاً عن الأمر كله .

– انني تحت أمرك يا جميلتي .. وليس من الضروري ان تخبريني بشيء اذا رأيت هذا .

– انك نبيل جداً .. ولكن أؤكد لك ان الأمر يتعلق بالصبي دافيد .

– أحقاً ؟ !

– انني لم أسرقه .. هذه هي الحقيقة . ولكنني اعرف اين هو الآن .. بل ونحن في الطريق اليه .

واختلجت يداه قليلاً كأنما دهش من حديثي . وانحرفت السيارة قليلاً ، فتمتم بعبارات السخط .

ومن ثم قلت :

– انني آسفة .. لم أكن أقصد أن أفاجئك . ولكن بقية قصتي فيها من المفاجآت أكثر من هذا . وانا لم اقل غـــير الحقيقة حين قلت انني في محنة شديدة .. في موقف موت أو حياة .

– ولهذا فأنت في اشد الحاجة الى المساعدة .

– المساعدة ! يا للأقدار الرحيمة ! من كان يظن أنني سأحد هذه المساعدة المدهشة ! ان معي روميل .. ومعي ايضاً بول فاري ، الفرنسي الشهم ، ولا شك انه لن يتردد في الوقوف بجانبي حين اخبره بالحقيقة الكاملة .. وان اندريه ، سائق سيارة النقل المغلقة بمفرده الآن .. وسيكون من السهل علينا ان نفاجئه وان ننقذ ريتشارد ودافيد قبل وصول بقية افراد العصابة .

وقلت بهدوء :

– ان اهم شيء في قصتي هو ان الصبي دافيد – دافيد بايرون – وهذا هو اسمه الكامل .. سوف يقتل الليلة مع أبيه اذا لم نسرع لانقاذهما .

فرمقني بنظرة جانبية وقال :

– ولكن ؟

– ان الأمر يبدو خيالياً ؟ ولكنها الحقيقة يا مسيو فاري .. ولكن دعني اسرد عليك قصتي .

واخذت احدثه عما اعرف عن لورين ، وريتشارد ، وتوني ، وكرامر .. ولما وصلت الى اسم مارزدن ، قاطعني قائلاً في دهشة :

– مارزدن ؟ انني حقاً اصدق كل ما قلته عن الآخرين .. اما مارزدن .. ذلك الانجليزى الهادىء ؟ هل يمكن ان يكون عضواً في عصابة قتل ؟

فقلت مؤكدة :

– انه يزعم انه انجليزي .. ولكنني اؤكد لك انه زوج لورين السابق ..

المدعو جيان – وهو يعمل لحساب كرامر ، بل انه في طريقه الآن للاشراف على قتل دافيد وريتشارد .

– ولكن ؟ ..

– ارجوك يا سيدي .. انني اذكر لك الحقيقة كاملة ، انني لا اعرف حقاً السبب الأساسي الذي يجعل كرامر يستمين بلورين مارزدن للقضاء على ريتشارد .. ولكنني اعتقد ان السبب يرجع الى ان ريتشارد راى اثناء الحرب جريمة وحشية ارتكبها كرامر ضد الأسرى العزل من السلاح . وكان ريتشارد مع صديقه توني حين شاهدا المذبحة .. وقد مات توني مقتولاً و ..

فقال بول بشيء من الحدة :

– اوه .. دعينا من الحرب وويلاتها .. وتأكدي انني اصدقك ولكن ماذا تنوين ان تفعلي .. وماذا ينوي الآخرون ان يفعلوا ؟

وفي تلك اللحظات كانت السيارة تمر بمدينة طولون ، فلما تركناها وراءنا ، قلت :

– توجد على هذا الطريق قرية اسمها اوجبيل ، وعلى مسافة يسيرة بعدها توجد – على اليسار – شبه مجموعة او صفوف من اشجار الشربين ، وامام هذه الصفوف يتفرع طريق على اليمين يؤدي الى هاوية صخرية بالقرب من شاطىء البحر . وفي هذا الطريق الفرعي تنتظر سيارة نقـــل بقيادة رجل يدعى اندريه .. وفي داخل هذه السيارة يوجد دافيد وريتشارد وفي حالة غيبوبة أما أندريه فلديه تعليمات بانتظار بقية أفراد العصابة ، وبعد ذلك يدبرون مقتل دافيد وأبيه بطريقة تجعل الجريمة تبدو كأنها حادث وقع قضاء وقدراً ، ولهذا سيحضر كرامر سيارة بايرون .. وستكون معه لورين .. أما مارزدن ، فقد

سبقها بسيارة كرامر . وأظن أننا ، بمثل هذه السرعة ، قد سبقناه بمسافة كبيرة .

وتوقفت عن الحديث بقلب خافق .. ونظرت اليه في لهفة وأنا أرجو أن أكون قد أثرت حوافز رجولته وشهامته فلا يتركني أواجه أفراد تلك العصابة بمفردي .

وفجأة رأيته يضع يده على يدي ويقول باسماً :

– اطمئني يا جميلتي .. لسوف أقف بجانبك في هذه المحنة ولكن كيف عرفت كل هذه الأسرار عن العصابة ؟

وسحبت يده من يدي برفق وأخذت أبحث في حقيبتي عن سيجارة ، ثم قلت :

– هل هذا يهم الآن .. أليس من الأفضل أن نفكر فيما ينبغي ان نفعل ؟

– نعم .. نعم .. هذا صحيح .

ثم دس يده في جيبه وأخرج علبة سجائر فضية أنيقة وناولها إياي دون أن ينظر نحوي . وكان يبدو في تلك اللحظة مستغرقاً في أفكاره .. ولعله كان يفكر في وسيلة للخروج من هذا المأزق وقد تأكدت من هذا حين قال بذهن شارد وبلغته الفرنسية :

– لماذا لم .. أوه .. أرجوك أن تشعلي لي سيجارة أيضاً يا جميلتي ؟ أعني .. لماذا لم تلجأي الى الشرطة ؟

فقلت بنفس اللغة الفرنسية :

– لم يكن لدي الوقت الكافي .

ثم انحنيت لأشعل السيجارة بالقداحة . وسمعته يقول :

– والكلب كيف عثرت عليه ؟

وانطفأت القداحة .. وأشعلتها مرة ثانية وثالثة .. ولم أجب عليه . ولم يهتم هو بعدم إجابتي ، لأنه كمن يتحدث الى نفسه . وكان يقول :

– وذلك الرجل مارزدن .. كيف عرفت انه زوج لورين ؟

واشتعلت القداحة في النهاية .. وأشعلت سيجارته أولاً وناولتها له . وكانت علبة السجائر الفضية مفتوحة على ركبتي . وقلت له :

– هل معك مسدس ؟

– آه .. ان معي مسدساً لحسن الحظ .. ولكن .. أخبريني .. ماذا جاء بك الى مارسيليا وما هي علاقتك ببايرون ؟

وفيما أنا أشعل سيجارتي ، رأيت على ضوء القداحة الاسم المحفور في غطاء علبة السجائر الفضية من الداخل .. وعبارة الاهداء ..

الى زوجي جيان بول .. مع حبي .. ل.

وانطفأت القداحة ، وتسمرت في مكاني وأنا أسمع صوته ، الساخر ، كأنما يأتي الي من بعيد :

– اطمئني يا جميلتي .. لسوف ينتهي كل شيء كما تحبين . انك تثقين بي .. أليس كذلك ؟

وعرفت نبرات الصوت في النهاية .. انه نفس للصوت الذي سمعته قبل

ساعة في متجر كرامر .. نفس الصوت الذي سمعته في حديقة جبل روشير دي دوم .. صوت جيان ، وليس مارزدن كما ظننت .. جيان الذي قالت عنه لويز نقلاً عن مديرة الفندق انه يشتغل بتجارة التحف والآثار .

ومرة أخرى سمعته يقول :

– انك تثقين بي يا جميلتي ! أليس كذلك ؟

وكان يبتسم في الظلام ..

* * *

وأدركت مدى غبائي الذي أوقعني في براثن أفراد العصابة بهذه البساطة ، ولكن من أين لي أن أعلم أن بول فاري هو جيان ، زوج لورين ؟ من أين لي أن أعلم أن بول هـو الذي أرسله ماكس كرامر ليستقل سيارته الألمانية – المرسيدس – وينطلق وراء أندريه لينتظر وصول لورين وكرامر في سيارة ريتشارد .

ولكنه القدر الذي جعل بول فاري يصل بالمرسيدس الى محطة البنزين التي كنت واقفة بجانبها أسأل عن الطريق الى جراج سيارتي . انه القدر الذي جعلني أقع ببساطة بين أيدي أفراد هذه العصابة !

وسمعت بول فاري بجانبي يرسـل ضحكة خفيفة حين التمعت أمامنا في الطريق عينا أرنب جبلي فوجىء بانقضاض السيارة عليه ولم يحاول بول ان يخفف السرعة أو ينحرف عن طريق الارنب ، وإنما زاد من السرعة وداس على الأرنب الذي أرسل صرخة جعلت الكلب روميل يدمدم في المقعد الخلفي .

وقال وهو يضحك مرة أخرى :

-- هل خفت ؟

ـ نعم .. أمن الضروري أن تنطلق بهذه السرعة ؟

فابتسم وهدأ السرعة قليلاً لدهشتي .

ـ هل كان من الضروري ان تفعل هذا ؟

ـ أفعل ماذا ؟

ـ ان تقتل ذلك الأرنب التعس ؟!

وأرسل مرة أخرى ضحكة مرحة قصيرة زادت وجهه جمالاً وقال

ـ أتكرهين القتل ؟

ـ طبعاً .

ثم أردفت قائلة وأنا أحاول أن أخفي نبرات الخوف من صوتي :

ـ وأنت هل تحب القتل ؟

وزاد من تهدئة سرعة السيارة وهو يقول :

ـ إذا اعترض طريقي أحد ، يا جميلتي ، فهو المسئول عما يحدث له

وامسك بيدي وهو يهدىء السيارة مرة ثالثة وقال ملتفتاً إلي :

– هل زايلك الخوف مني ؟

وقلت بهدوء وأنا أدخن السيجارة بشراهة :

– لا ..

وكنت أدرك ان مصيري سيكون كمصير ريتشارد ودافيد .. وكان الواضح لي ان بول فاري من المجرمين الذين يرتكبون جرائم القتـــل ببساطة ، بل وباستمتاع . ولم يكن أدل على هذا من بهجته وهو ينطلق في الظلام الى مكان تقرر فيه ارتكاب جريمة قتـل بريئين ، وكان وقوعي بين يديه هـو اللمسة الأخيرة في الصورة كلها .. اللمسة التي زادت من بهجته ومن أثارة شعوره بالمزيد من المتعة : الليل .. والسرعة .. والخطر .. وامرأة جميلة بين يديه !

وهبطت سرعة السيارة الى ثلاثين ، ثم عشرين ، ثم عشرة كيلو مترات في الساعة ، وألقى بول فاري بالسيجارة ، لف ذراعه حول كتفي ، وادنى وجهه الجميل من وجهي ، ولما حاولت المقاومة شعرت بضغط ذراعه حولي . وكانت عضلاته كالفولاذ وهو يزداد ضغطاً على كتفي . أما عيناه فكانتا تتألقان ببريق عجيب .

واعتقد ان الخوف شل حركتي ، فأغمضت عيني ، وتساءلت في نفسي عما إذا كان سيقبلني في تلك اللحظات ، أو سيلقي بي من السيارة ، أو سيضعني مع ريتشارد ودافيد في السيارة البنتلي الرمادية التي قرروا ان يقذفوا بها الى الهاوية الصخرية .

وأحسست بفمه يقترب من وجهي وهو يقول :

– ياجميلتي ! يا جميلتي .. !

وتمالكت اعصابي بسرعة .. وادركت ان معرفتي حقيقة امره هو السلاح الوحيد الذي يمكنني ان احاربه به .. ومن ثم كان علي ان امثل دور دليلة في قصة شمشون إذا اردت ان اقضي عليه .. وهكذا قلت هامسة :

–أوه .. أرجوك ان تنتبه للطريق .

وارسل ضحكة خفيفة وقد ادرك من نبرات صوتي اني وقعت فى شرك جاذبيته . وبسرعة ألقيت بسيجارتي من النافذة ثم قلت بسرعة :

– اوه .. يالغبائي !

وأوقف السيارة وهو يقول :

– ماذا حدث ؟

– تصور اني ألقيت بحقيبة يدي مع السيجارة !

وانتصبت جالسة وانا احاول الإبتعاد عنه . ولكنه اقترب مني وقد اضطرمت عواطفه وقال :

– ماذا يهمنا من أمر الحقيبة ؟

فقلت بدلال .

– أوه .. ان فيها ادوات التجميل .. وليس من المعقول أن اتبادل الحب وانا على هذا الشكل .

ونظرت اليه باغراء وقلت :

– أرجوك .. أرجوك ان تأتي بها إلي .

– فيما بعد .. فيما بعد..

وارتعدت من فرط الخوف والقلق .. وكنت أخشى ان تلحق بنـا السيارة البنتلي في أية لحظة .. وقال هو ..

– أترتعدين يا جميلتي ؟

فأومأت برأسي وقلت :

– بول .. !

– نعم يا جميلتي .

– أتحبني حقاً ؟

– يا له من سؤال ؟ !

– حتى وأنا في هذا المنظر ؟

– انني احبك في أي وضع .. ولكن اخبريني : ما هي علاقتك بريتشارد بايرون ؟

فقلت بسرعة :

– انني لا أعرف ريتشارد بايرون ولا يهمني أمره ، ولكن الصبي دافيد .. لقد احببته منذ عرفته .. أرجوك يا بول .. هلم نمضي حتى لا يسرقنا الوقت ..

– أوه .. اتناديني باسمي هكذا ؟ إذن فقد .. احببتني ؟

– نعم .. نعم .. ولكن لابد أن ننقذ الصبي أولاً يا عزيزي .

– ان الوقت متسع أمامنا يا جميلتي .. لا تخافي.

وحاول مرة اخرى ان يطوقني بذراعه ، ولكنني قلت وأنا اتراجع عنه في شبه دلال :

– لا . لا . أحضر لي حقيبتي أولاً . أو دعني أهبط وأحضرها بنفسي .. انني في حاجة إلى شيء منها .

ثم ضحكت لأوهمه بنيتي الطيبة ، ونظر هو إلي في ارتياب ، ثم هز كتفيه وكأنما قرر أن يرضيني حتى آخر لحظة :

– لقد سقطت على مسافة عشرين خطوة تقريباً من حيث وقفنا ! !

وكنت أبتهل إلى الله في نفسي الا يغلق المحرك ويأخذ مفاتيح السيارة معه واستجاب الله لابتهالي.. فهبط من السيارة وعاد خطوات وهو يحملق في الظلام، وقلت وأنا اعد خطواته :

– ألم تجدها.. هل آتي لأعاونك في البحث عنها ؟

– لا .. لا داعي ..

ولما ابتعد نحو عشر خطوات ، انتقلت بسرعة إلى مقعد القيادة ، وأعددت السيارة للانطلاق حين سمعته يقول :

– ها هي ذي .. وجدتها .

وهنا اندفعت بالسيارة في سرعة .. وخشيت ان تقفز ثم تتوقف .. ولكن الله سلم .. إلا ان اللعين اندفع كالسهم واستطاع ان يتعلق بالنافذة الخلفية . ومن ثم صحت قائلة :

– روميل .. عليك به !

ولكن الكلب المدرب دمدم ولم يتحرك .. لقد كان منذ لحظات يرانا ونحن جالسان جنباً إلى جنب نتحادث .. بل رآني وأنا أقبـــل بول ، فكيف يهجم عليه الآن !

واطلقت للسيارة سرعتها وقد استرددت رباطة جأشي وهـدوء أعصابي ، وكان بول يصرخ في فزع وهو يحاول جاهداً أن يدخل إلى المقعد الخلفي :

– هدئي السرعة أيتها المجنونة . أعدك بأن اتركك وشأنك . أرجوك ..

وقررت أن أغامر وأنحرف بالسيارة فجأة ثم أستقيم بها على أمل أن اقذف بول بعيداً عند انحرافي المفاجىء ، ولكن هذه الخطة فشلت بسبب استماتة اللعين في التشبث بمكانه .

وكررت المحاولة ، وكدت اصطدم بالسيارة في الصخور الواقعة على جانب الطريق ، ولكن بول تمكن في النهاية من الدخول إلى المقعد الخلفي، ثم إلى المقعد الأمامي بجـــواري ، وسمعت انفاسه اللاهثة وهو يضع يده المرتعدة في جيبه ويقول :

– أوقفي السيارة فوراً .. ان معي مسدساً !

ولم احفل بأمره ، لأننا عندئذ كنا قد تجاوزنا قرية أوجيبل ، وكان علي ان اتبين صف أشجار الشربين امام الطريق الفرعي الثاني بعد القرية .

وعاد يقول:

– سأطلق النار على بطنك .. !

وضحكت بابتهاج.. لقد كنت أعرف في تلك اللحظة انني سيدة الموقف . كنت اعرف انه قد انهار عصبياً . وامثال هـــؤلاء السفاحين عندما ينهارون عصبياً يكونون في حالة يرثى لها من الخوف والتخاذل ، وكنت اعرف ان

السرعة التي انطلق بها ، هي السلاح الذي يضاعف من خوفه وفزعه.. ولهـذا قررت ان استغل هذا السلاح إلى أقصى حد ..

وراح يصرخ في رعب :

– خفضي السرعة أيتها المجنونة .. انك ستقتليني معك .. أرجوك.. أعدك بأن اتركك وشأنك .. بل أرجـوك . دعيني أهبط في سلام .. انني ، سأطلق النار عليك إذا لم ...

واحسست بشيء صلب داخل جيبه يلتصق بجنبي . وهنا قلت له وأنا أزيد سرعة السيارة :

– لماذا لا تفعل ؟ من ذا الذي يمنعك من قتلي؟

وارتعدت يده التي في جيبه وهو يرسل وابلاً من الشتائم القذرة ثم يقول :

– لو كنت أعرف انك تعلمين من أنا .. لو كنت أعرف .. ! ولكن ..

ومررنا في تلك اللحظة بالطريق الفرعي الأول .. وقلت :

– كان الواضح أني عرفت من أنت .. من اسمك المنقوش على علبة السجائر الفضية وهذا ما جعلني اتظاهر بالاستجابة لعواطفك . أما الحقيقة. فاني اقذف بها في وجهك .. انك آخر رجل في الدنيا يمكن أن تحبه سيدة تحـترم نفسها ..

وانقض علي بعد أن جرحت كبرياءه ، وانحرفت السيارة قليـــلاً ولكنني اسرعت بالسيطرة عليها وأنا اقول :

– لو حاولت أن تفعل هذا مرة اخرى فسوف تموت معي !

وتراجع متخاذلاً وقد شله الخوف في النهاية .. وأدركت انه كرجل قوي قد انتهى . ولكنني كنت اعرف انه لم ينته كأفعى تتحفز للانقضاض عند سنوح الفرصة .

وأخذت افكر في المسدس الذي يحمله في جيبه .. آه لو استطعت ان أظفر

بهذا المسدس منـــه ، إذن لانتهت متاعبي إلى الابد ، إذن لاستطعت ان اقف بالسيارة أمام صف اشجار الشربين ثم استخدم المسدس في ارغامه ، وارغــام اندريه ، على اطلاق سراح ريتشارد ودافيد قبل وصول ماكس كرامر ولورين في السيارة البنتلي !

وتذكرت فجأة شيئاً هاماً .. تذكرت أن جيوب سترته، عندما كان واقفاً أمامي عند محطة البنزين، لم تكن منبعجة .. أي لم يكن فيها ما يدل على وجود مسدس إذن فلا شك في انه يخدعني بوضع يده داخـل جيبه ليوهمني بأنه يحمل المسدس ؟

وتحسست بذراعي الأيسر باب حقيبة يدي .. ثم مددت يدي بداخلها ، وإذا بي أجد المسدس !

وفي الوقت نفسه رأيت صف اشجار الشربين يبدو في أضواء السيارة كأنها تسرع نحونا ! !

الفصل الثالث عشر

في الهـــاوية

وفي سرعة البرق أطفأت مصابيح السيارة الأمامية ، ولكن بول كان قـــد رأى أيضاً صف اشجار الشربين ، وتحفز للقيام بالمحاولة الاخيرة ، وكان علي ان افعل شيئاً واحداً ، وهو ان أمضي إلى الأمام ، ثم ألقي ببول فاري في مكان بعيد بعد ان أرغمه على الهبوط بالمسدس ، ثم أعود لأعالج أمر اندريه بمفردي .

وقلت له ونحن نقترب بسرعة من صف اشجار الشربين :

– اسمع .. ان معي الآن ...

ولكن الوقت كان قد فات ، لأني ما كدت أنطق بهذه الكلمات حتى رأيت سيارة النقل المغلقة واقفة على جـــانب الطريق وبجوارها رجل أدركت انه اندريه .. وصاح بول قائلاً :

– الي يا اندريه .. الي يا اندريه .. أنا جبان !

واطفأت المصباحين الأماميين الكبيرين ، واندفعت بالسيارة غـــير مبالية بالرجل الذي أسرع معترضاً الطريق .. وكان مارزدن ، وكان ممسكاً بمسدس في يده .

وعاد بول يهتف صارخاً :

– الي يا اندريه .. الي يا اندريه .

ورأيت مارزدن يقفز بعيداً عن مسار السيارة المندفعة كالريح وكان وجهه في تلك اللحظة الخاطفة شاحباً وهو يصيح آمـــراً بالتوقف .. ثم إذا بطلقات نارية ولهيب أحمر وإذا بالسيارة تقفز في الهواء .. وحاولت ان أسيطر عليها ، ولكنها انحرفت عن الطريق واندفعت مترنحة إلى هاوية .. ودارت الدنيا بي .. وأحسست كأني فقــدت الوعي ولكنني لم ألبث ان شعرت بالسيارة تتوقف بجوار صخرة ، وسمعت وقــع أقدام رجل يسرع نحوي قبـــل ان أغيب عن الوعي .

وفتح الباب بعنف ، وتلقتني يدان قويتان ، وخيل الي أني اسمع اصواتاً أخرى واقدام رجلين آخرين ، وفتحت عيني في النهاية لأجد نفسي راقدة وبعض الشراب في فمي ورجلين بجوار السيارة ، كان أحدهما يمسكني برفق والآخر يضع شراباً منعشاً في فمي .

وتمتمت قائلة وقد تبينت أحد الرجلين فاذا هو مارزدن .

– ان معي مسدساً.

ولشد ما كانت دهشتي حين سمعت الرجل الذي كان يمسكني برفق وحنان:

– اطمئني يا شاريتي .. أنا ريتشارد !

– ريتشارد ؟ !

– نعم ..

– ولكنك مقيد داخل السيارة المغلقة ، لقد جئت لانقاذك .

فأرسل ضحكة وقال :

– أنا اعرف يا حبيبتي .. ولكن ما كان ينبغي ان تحاولي قتل أحد رجال المباحث الجنائية بالسيارة ...!

– أحد رجال المباحث الجنائية ؟

– نعم . انه المفتش مارزدن .. من اسكتلانديارد !

وقال مارزدن وهو ينحني باحترام:

– في خدمتك يا سيدتي.

فنهضت جالسة وقلت في اضطراب :

– انني آسفة جداً .. لم أكن اعلم .. ظننتك اندريه أو واحداً منهم .. كما انك اطلقت النار على السيارة ...

فقال ريتشارد :

– لقد أطلقنا النار عليها لأننا حسبناها سيارة كرامر . وقد خطر لنا انه يحاول الهرب بعد ان رآنا .

وقال مارزدن :

– أرجو ان تكوني بخير .

ونهضت واقفة ، وتحسست جسمي ثم قلت باسمة :

– انني بخير والحمد لله ..

ثم أردفت قائلة حين رأيت السيارة قد توقفت على حافة هـــاوية مؤدية إلى البحر مباشرة :

– ويبدو ان الحظ كان بجانبي حتى آخر لحظة . كيف توقفت السيارة ؟

وقال ريتشارد :

– لقد أصاب مارزدن عجلتهـــا الأمامية ، ولولا الحظ كما قلت لانقلبت في الهاوية .

وازحت خصلات الشعر عن وجهي وأنا لا أكاد أصدق أني أسير بجوار ريتشارد وأحد رجال اسكتلانديارد بعد كل ما حدث وفجأة هتفت قائلة :

– ودافيد ! اين دافيد ؟

ورد ريتشارد قائلاً:

– انه بخير .. لا يزال منوماً وقد نقلناه إلى مكان آخر وراء صخرة في الطريق الفرعي ..

– و .. وبول فاري ؟ !

فقال مارزدن بوجه مقطب :

– لا يزال حياً ولكنه فاقد الوعي ، ولا نعرف بعد مدى اصابته .. لقد اخرجه بايرون من السيارة وارقده بجوارهــــا .. ولسوف اعود اليه بعد لحظة لأفحص حالته .

فقال ريتشارد :

– نعم .. ولكن يحسن أولاً ان نبعـــد شاريتي عن منطقة الخطر .. ماذا كنت تفعلين في سيارة كرامر .. وأين هو؟ لقد قال مارزدن ان كرامر سوف يأتي إلى هنا ..

– انه في الطريق إلينا فعلاً .. مع لورين ليشرفا على إلقائك مع دافيد في هاوية صخرية داخل سيارتك ..

– سيارتي أنا ؟ آه .. كان يجب أن تتوقع هذا يا مارزدن .. وأعتقد ان ذلك الوغد المغشي عليه بجوار المرسيدس هو زوج لورين الحقيقي !

– نعم ..

– الرجل الذي قتل توني وضرب دافيد على رأسه ...

– وكان الغضب يقطر من صوته . ولكنه تمالك نفسه بسرعة وقال لي :

– هل أنت واثقة بأنك على خير ما يرام ؟ ألا تشعرين بأي ألم في أي مكان من جسمك ؟

فأكدت له انني بخير .. وكنا قد وصلنا إلى مدخـــل الطريق الفرعي ، وفجأة قلت :

– روميل ، أين روميل ؟

– أوه .. كلب دافيد ؟

– نعم .. كان بالسيارة ..

– لعله سقط من السيارة .. لسوف نبحث عنه بعد قليل .

وتلفت حولي فلم أجد مارزدن فقلت :

– أين مارزدن ؟

– ذهب ليلقي نظرة على ذلك الوغد جيان أو بول فاري .

ولم يلبث ان أقبل مارزدن قائلاً :

– انه لا يزال مغشياً عليه .. ولكن علينا أن نأتي به إلى سيارة النقـــل ونضعه بجوار سائقها مقيد اليدين والقدمين .

وقال ريتشارد :

– لا أظن اننا سنجد حبلاً آخر داخل السيارة .. لقد استخدمنا في تقييد سائقها الحبل الوحيد الذي كان داخل السيارة .

وقلت :

– ان اسمه اندريه ..

وقال ريتشارد من داخل السيارة حيث كان يبحث عن حبل :

– ألديك حزام يا شاريتي ؟ .

– لا .. للاسف .

ووثب من السيارة قائلاً :

– انه موقف مضحك ! عدد من الاشرار ، ولا حبال تكفي لتقييدهم .

وقال مارزدن :

– لعلنا نجد في سيارة كرامر شيئاً نقيد به جيان .. هـلم يا ريتشارد .. وعليك يا مسز سيلبورن ان تسرعي إلى أول صخرة في الطريق لتبقي بجوار دافيد حين تسمعين صوت سيارة مقبلة ..

ثم أردف قائلاً :

– لقد وجدت في السيارة المرسيدس هذا المسدس . يمكنك ان تحتفظي به للطوارىء يا مسز شاريتي .

وفي تلك اللحظة سمعت ، رغم خرير أمواج البحر القريب ، أزيز سيارة مقبلة ، فنبهت اليه اسماع ريتشارد ومارزدن الذي قال :

– نعم .. وهي مقبلة بسرعة رهيبة أيضاً .

وقال ريتشارد :

– هذا صوت سيارتي فعلاً .. عليهم اللعنة ، شاريتي .. أرجو ان تسرعي إلى مكان بعيد عن منطقة الخطر .. اذهبي إلى دافيد وراء تلك الصخرة ..

فأومأت برأسي وتحركت في الاتجاه الذي أشار نحوه .. ولكنني ما كدت أبتعد خطوات حتى توقفت واستدرت ، لقد غلبني الفضول على أمري وقررت ان أبقى لأرى ما سوف يحدث. وكانت السيارة البنتلي مقبلة بسرعة رهيبة حقاً ومحركها يهدر كالرعد وأدركت انها سوف تصل إلى صف أشجار الشربين في اية لحظة .. وفجأة سمعنا هدير محرك سيارة اخرى .. السيارة المرسيدس. ولا تعي ذاكرتي ما حدث على وجه التحديد .. فقد وجدت نفسي أجري بكل قواي نحو الطريق .. لقد خفت ان يكون بول فاري قـــد أفاق وانطلق بالمرسيدس لينذر كرامر ولورين بالخطر الذي يتهددهما ..

ورأيت السيارة البنتلي تندفع نحو صف أشجار الشربين ، ثم سمعت صريخ فراملها . ورأيت السيارة المرسيدس تهدر كقاذفة قنابل ، ثم يقفز إلى الأمام في منتصف الطريق ثم تترنح بسبب عجلتها الأمامية اليمنى المعطلة .

ولم يكن هناك أية فرصة لنجاة السيارة البنتلي من المصير المحتوم .

لقد ارتفعت في الجـــو صرخة عالية ، ثم إذا السيارتان تتعانقان في صدمة هائلة ، وإذا هما تتدحرجان إلى الهاوية الواقعة بجوار الطريق ، ثم تقفزان معاً إلى البحر .. ويسود فجأة سكون رهيب بعد ذلك الدوي المفزع .

الفصل الرابع عشر

بعض الحقيقة

كان دافيد لا يزال نائماً عندما ذهبت اليه وراء الصخرة ، وكان مارزدن وريتشارد قد ذهب إلى حافة الهاوية لينظرا ماذا حدث للسيارتين وراكبيها .. ولكنهما قالا بعد ان جاءا فيما بعد ان السيارتين غاصتا إلى أعماق البحر ، وانه ليس هناك أي أمل في نجاة أحد من راكبيهما .

وما كدت أصل إلى دافيد حتى رأيت الكلب روميل قد سبقني إليه وراح يلعق وجهه ويهمهم كأنما يريد ايقاظه . ولما رآني الكلب راح يتواثب علي ويلتف حولي وهو يهز ذيله ابتهاجاً وكأنما أدرك بغريزته ان كل شيء أصبح على أحسن حال في النهاية .

وركعت بجوار دافيد وتحسست وجهه الشاحب وأنا أقول لروميل :

– هذه براعة منك ان اهتديت اليه بسرعة يا روميل .. ولكن انتظر قليلاً .

وأخذت أدلك وجه دافيد ويديه حتى اختلجت أجفانه ثم فتح عينيه وحملق في وجهي ، فقلت :

- دافيد .. كيف حالك ؟

- أوه .. مستر سيلبورن

- نعم .. هل تشعر بتعب ؟

وجلس في اعياء بوجه شاحب ثم تمتم قائلاً :

- انني أشعر .. انني اشعر بغثيان شديد .

وبعد لحظات أفرغ خلالها ما في جوفه ، ثم قال مستريحاً :

- لقد استرحت الآن .. آه .. هـذا عزيزي روميل ؟ اين أنا .. وماذا حدث ؟

- اطمئن يا دافيـد .. انني لست فرداً من العصابة .. انني معك ومع والدك ..

فاتسعت عيناه وقال في لهفة :

- أبي .. أبي .. أين هو ؟ !

وكان ريتشارد في تلك اللحظة مع مارزدن عند الهاوية التي سقطت فيها السيارتان ، ومن ثم قلت :

- سوف تراه بعد قليل .. ولكن اخبرني بما حدث .. لماذا هربت .. اخبرني بكل شيء ؟

فهز رأسه وقال :

– انني لا أذكر على وجه التحديد ما حدث ..

– بسبب الخدر القوي الذي تجرعته بالرغم منك ..

– ولكنني أذكر انني أخذت السوار الفضي عندما قررت الهـــرب من لورين .. ولم يكن معي مال .. وكنت أعرف ان مارسيليا هي المدينـة التي يمكن ان أبيع فيها مثل هذا السوار دون ان اثير شكوك أحد ، ووصلت إلى مارسيليا راكباً سيارة نقل وافق سائقها أن يحملني اليها بلا أجر .. وهناك عرضت السوار للرهن على متجرين ، وأخيراً أشار أحدهم إلى متجر ذلك الرجلَ البدين البشع فدخلته لأرهنه ..

وسرت في بدن الصبي رعدة خفيفة .. وقلت له ..

– وماذا كنت تنوي ان تفعل بقيمة الرهن ؟

– كنت أريد ان آكل أولاً ..

– يا لك من مسكين .. هل معنى هذا انك لم تأكل شيئاً منذ الصباح ؟

– لقد أعطاني سائق سيارة النقل بعض الطعام حين وصلنا إلى مارسيليا .

– وبعد ذلك .. ماذا كنت تنوي ان تفعل ؟

– كنت أنوي العودة إلى تيمز لأبحث عن أبي .

فقلت بدهشة :

– تبحث عن أبيك ؟

– نعم . فبعد أن اختفيت انت من الفندق ، قررت أن اهرب أنا للبحث عن أبي .

– لماذا ؟ مع أنك قلت انك تخافه ؟

– لقد كذبت عليك عندئذ ..

– معنى هذا انك لم تظن يوماً انه .. انه مجنون كما قيل لك ؟

– طبعاً لا ..

– ولكنك كنت شديد الفزع يوم كنا في تيمز ؟

– لم أكن خائفاً على نفسي منه ، وإنما كنت خائفاً عليه من أعدائه . لسوف أحاول أن أشرح لك الأمر كله .

– نعم .. أرجوك .

وراح يتحدث بصوت واضح هادىء خال تماماً من الانفعال . وكان من العجيب ان انصت إلى بعض تفاصيل هذه القصة الرهيبة من فم صبي لم يتجاوز الثالثة عشرة !

وبعد أن سمعت ان أبي ظفر بالبراءة واطلق سراحه ، أيقنت انه سيأتي فوراً ليراني ويطمئن علي في دينتج ، ولكنه لم يفعل ، وأخذت أنتظر ، وانتظر ، ثم اتصل رجال الشرطة بالمسز هاتشنج – مديرة بيتنا – وأخبروها ان أبي أصيب اصابة بالغة في حادث تصادم سيارته بسيارة اخرى ، وانه راقد بالمستشفى ، وكان طبيعياً ان أعرب عن رغبتي في رؤيته ، ولكنهم قالوا لي أنه غائب عن وعيه .. فانتظرت ، وأخيراً جاءت هي .

ورنت الكراهية بوضوح في نبرات صوته وهو ينطلق بالعبارة الأخيرة ، وقد ظلت نبرات الكراهية تزداد وضوحاً في حديثه كلما جاء اسمها على لسانه .

– جاءت الي في غرفتي وقالت لي إنها أتت من المستشفى .. ثم راحت تخبرني – شيئاً فشيئاً – ان أبي قد مات .. وانه لا فائدة من ذهابي الى المستشفى ، وصدمت صدمة جعلتني لا أعرف ماذا أفعل أو كيف أتصرف ، ومن ثم وافقتها حين عرضت علي أن تصحبني الى فرنسا حتى تهدأ الأمور وتسوى شئون الميراث .. ولم يكن أمامي الا أن أقبل كل ما تقوله لي ، لأني لم أتصور أنها كانت تكذب ، وأنها كانت تدبر الشر لي ولأبي ، أما بعد ذلك ..

فأومأت برأسي بينما استطرد هو يقول :

– وعشنا أياماً في شقة لها بجوار غابة بوا . وكانت لطيفة معي ، ولكنني من فرط تعاستي وحزني على أبي لم أكن أهتم بما يجري لي أو حولي . وكنت أتجول هائماً معظم ساعات النهار في غابة بوا .. وهناك عثرت على روميل وقد ربطت في ذيله علبة صفيح .. فحررته منها ، وربط الحب بيننا .. وتحسنت بعد ذلك نفسيتي الى حد ما .

– وماذا حدث بعد ذلك ؟

– منذ ثلاثة أسابيع على وجه التقريب فاجأتني هي قائلة بأن أبي لا يزال على قيد الحياة ، وأنها كذبت علي لصالحي . لأن الأطباء قرروا أنه أراد أن ينتحر عند وقوع تلك الحادثة بسبب اختلال قواه العقلية .

– أهكذا ؟

– نعم . لقد أفهمتني أنه ارتكب تلك الجريمة حقاً ، وأنه حاول الانتحار

بعد صدور الحكم ببراءته بسبب وخز ضميره .. وتظاهرت بعد ذلك بأنها لا تريد أن تزيد من حزني وتدلي إلي بكل التفاصيل .

– وهل صدقتها ؟ .

– لا .. كنت واثقاً بأن أبي ليس مجنوناً وليس مجرماً .. ولم يكن هو الذي ضربني على رأسي في ليلة الجريمة . كما أنه لم يكن ينوي الانتحار ، لأنه اتصل بي تليفونياً بعد خروجه من السجن وقال انه سيأتي إلي في أسرع وقت ممكن .

– وهل قلت لها هذا ؟

– لا .. ولا أدري لماذا .. ولكنني بدأت أرتاب في أمرها ومن ثم قررت أن أحتفظ برأيي واحساسي لنفسي .

– ولكن لماذا لم تكتب الى أبيك ؟

– كان هذا أول شيء فكرت فيه . ولكن الفرصة لم تسنح لي . وعدا هذا فقد كانت هي راغبة في أن أكتب إليه .. ولهذا قررت ألا أحقق رغبتها لأني كنت قد فقدت الثقة فيها تماماً .

– هل كانت راغبة في أن تكتب أنت لأبيك وتطلب منه الحضور لرؤيتك ؟ .

– نعم .. قالت انها لا تستطيع أن تدعني أعود الى انجلترا إلا اذا حضر أبي لترى حالته وتطمئن الى رجاحة عقله . وكانت كلما ألحت علي في الكتابة إليه ازددت ارتياباً في نواياها ومن ثم قلت لها انني خائف منه ولا أريد أن أكتب إليه .

– ولهذا كتبت هي إليه تدعوه الى فرنسا .

– نعم .. وقد استطعت أنا أن أتصل به تليفونياً لأحذره من الحضور ، ولكن مديرة البيت قالت لي إنه سافر فعلاً الى فرنسا .. ولما سألتها عن حالته قالت انه بخير ولكنه في أسوأ حال بسبب لهفته علي ورغبته في العثور على مكاني وأخيراً أدركت أن لورين وبعض الرجال الذين تلتقي بهم يريدون شراً بأبي .. وأنهم ينصبون له كميناً في فرنسا ..

– يا لك من ذكي صغير ..

– ولهذا قررت ألا أتيح لهم فرصة للايقاع به .. ولكنني دهشت بعد وصولنا الى أفينون حين رأيتها تسمح لي بالخروج بمفردي أو مع سيدة غريبة عنا مثلك . ولهذا ظننت أنك شريكة لهم ..

فابتسمت وقلت :

– انهم كانوا يراقبونك من بعيد كلما ذهبت الى أي مكان بمفردك .

– اذن فقد أحسنت بهربي منهم !

– نعم أحسنت .. لقد انتهى كل شيء الآن الى خير ..

وفي تلك اللحظة سمعنا وقع أقدام ريتشارد ومارزدن وهما عائدان من الهاوية المشرفة على البحر . وما كاد دافيد يرى أباه ، حتى اندفع إليه وألقى بنفسه بين ذراعيه .

وأخبرني مارزدن عندئذ أنه لم ير أثراً للسيارتين بعد أن غاصتا الى أعماق البحر .

وعدنا جميعاً الى سيارة النقل التي كان بداخلها سائقها أندريه مقيد اليدين والقدمين ، وركبناها في طريق العودة الى مارسيليا .

* * *

وصحوت من نومي في ضحى اليوم التالي على ضجيج المدينة . وما كدت أفيق تماماً حتى فتح الباب ودخلت لويز تحمل صحفة القهوة . وهتفت قائلة بابتهاج :

– عزيزتي لويز .. ما أسعدني برؤيتك ؟ .

وبعد أن تعانقنا ، قلت وأنا أملأ قدحي بالقهوة :

– متى جئت ؟

– منذ ساعة تقريباً ! في أول قطار .. وقد أحضرت معي ملابسك .

– أوه .. ما أشد ذكاؤك ؟

– دعينا من هذا .. لقد اتصل المستر بايرون تليفونياً عقب وصولي .. وهو في انتظارنا بفندق دي لاجارد .. وأنا أكاد أموت شوقاً لمعرفة كل شيء .. من هو المستر بايرون ؟ ومن هو دافيد بريستول .. ومن هو مارزدن .. ولماذا قال لي المستر بايرون أن أخبرك أن روميل عض السائق أندريه ومزق قاعدة بنطلونه ، وكان يتحدث كأنه يعرفك طول حياتك .

فقلت باسمة :

– اننا لم نتعارف إلا منذ ثلاثة أيام فقط ..

– ان حديثه التليفوني يدل على أنه رجل مهذب جداً .

– وانه لكذلك .

– وهل حدث بينكما ..

– اننا نتبادل الحب ..

ـ عجباً ! وماذا عن جوني ؟

ـ ان جوني في عالمه الآخر سيبارك زواجنا ..

فضحكت وقالت وهي تقدم لي سيجارة :

ـ انني لا أدري لماذا لا يقع الرجال في حبي بمثل هذه البساطة ؟

ـ لا بد أن تجدي الرجل الملائم في الوقت الملائم يا لويز .

ـ ربما .. والآن أخبريني بكل شيء .

ـ انها قصة طويلة .

ـ أمامنا ساعة أو أكثر حتى نلتقي بالمستر بايرون .

ولما سردت عليها كل ما أعرفه عن القصة ، قالت في دهشة :

ـ لولا يقيني من صدقك اقلت انك قرأت هذه القصة في كتاب ! ومن كان يصدق أن المستر مارزدن ، الذي يقـــرأ أشعار . ت . س اليوت ، من رجال اسكتلانديارد .. هل أخبرك بدوره في هذا كله ..

ـ نعم .. أثناء عودتنا الى مارسيليا ، قال انـــه اهتم اهتماماً خاصاً بجريمة مقتل توني باكستر ، وقرر أن يوالي التحريات بعد أن صدر الحكم بـــبراءة بايرون .. قال انه ما دام هناك جريمة فلا بد من وجود المجرم .. ومن ثم اتفق مع رئيسه المفتش بروك على السفر الى فرنسا ومراقبـــة لورين ـ الزوجة التي شهدت ضد زوجها بلا مبرر معقول ـ حتى يصل الى الحقيقة .

ـ ولكن لماذا اختفى من فندق ترتسيه ـ فيدين بعد هرب دافيد ؟

– كانت تحرياته قد دلته على أن هناك جريمة تدبر ضد ريتشارد بايرون، وأن لورين تتخذ من دافيد وسيلة لارتكاب هذه الجريمة . ولما هرب دافيد استطاع مارزدن – بعد تحريات سريعة – أن يعرف أن دافيد اتجه الى مارسيليا . فأسرع إليها ويبدو أنه وصل الى متجر كرامر بعد دخول دافيد إليه بقليل .

ثم نظرت في ساعة يدي وقلت :

– يجب أن نسرع الى بايرون .. حسناً .. لقد ظل مارزدن خارج المتجر لا يعرف ماذا يفعل بينما كان كرامر قد نوم دافيد داخل المتجر بالمخدر ثم اتصل تليفونياً بلورين لتحضر بسرعة ولا شك أن بول فاري كان قد سبقها الى متجر كرامر ؟

– نعم .. لقد غادر أفينون بعد الظهر مباشرة قائلاً للورين أنه ذاهب للبحث عن دافيد ولم يعد بعد ذلك .

– مهما يكن من أمر فقد وصل بول فاري الى متجر كرامر قبل لورين .. وكان مارزدن لا يزال حائراً فيما يجب أن يفعل . ولكنه حين رأى بول يدخل المتجر كأنه واحد من أصحابه ، قرر أن يتحرى الأمر ، فدخل الى الساحة الخلفية من الحارة التي دخلت أنا منها ، وهناك رأى من النافذة الخلفية كرامر وبول فاري وأندريه .. ودافيد نائماً وفجأة رأى ريتشارد بايرون وهو يدخل ، ثم وهو يتلقى ضربة مفاجئة جعلته يقع مغشياً عليه .. وكانت لحظة حرجة في حياة مارزدن .. وفي تلك الأثناء ، أي بينما كان يحاول أن يهتدي الى طريقة لانقاذ ريتشارد والصبي دافيد شاهد لورين وهي تدخل مسرعة وأخيراً عرف بالمؤامرة المدبرة ، فتسلل الى سيارة النقل التي حمل إليها ريتشارد ودافيد ، ولكنه فوجىء ببابها يغلق عليه معهما .

وابتسمت لويز قائلة :

– ولكن هذا أتاح له فرصة فك قيود ريتشارد ، ثم التغلب على أندريه بعد وصول السيارة الى المكان المتفق عليه .

وضحكت أنا قائلة :

– وأخيراً قام روميل بدوره وعض أندريه في قاعدة بنطلونه ؟

ثم أردفت قائلة وأنا أنتقي ثوباً من أجمل أثوابي :

– والآن .. هلم الى لقاء ريتشارد ..

الفصل الخامس عشر

النهاية السعيدة

وفي الشرفة الواسعة لفندق دي لاجارد ، المطلة على البحر ، جلسنا جميعاً . أنا ولويز وريتشارد ودافيد ومارزدن الذي أمضى جزءاً كبيراً من الليل ومن الصباح ، مع رجال الشرطة حتى سويت الأمور تماماً .

وقد قال لي وهو يدخن متبغه ويفحصني بنظراته ·

— لقد خرجت من هـــذه المغامرة العنيفة وأنت في أحسن حال يا مستر سيلبورن .. أو هذا ما يبدو لي على الأقل !

وقال ريتشارد باسماً :

— لاشك أنك أخبرت لويز بكل شيء !

وردت لويز قائلة :

— نعم .. ولكنها لم تخبرني بأهم شيء .. وهو السر الكامن وراء كل هـــذه الأحداث !

فأومأ ريتشارد برأسه وقال :

– انه كرامر .. ماكس كرامر .. لقد فتش رجال الشرطة متجره هـذا الصباح وعثروا على كل الأدلة التي تكشف السر .

– أرجوك أن تخبرنا .

– هل أخبرتك شاريتي بما حدث أثناء الحرب ؟ أعني ما رأيته مع توني باكستر من وحشية ماكس كرامر في قتله لعدد كبير من الأسرى العزل من السلاح .

– نعم ! ولا عجب أنك فقدت السيطرة على أعصابك عندئذ .

فأومأ ريتشارد برأسه وقال :

– مما يعزيني عن مقتل توني أنه كان أيضاً قد فقد السيطرة على أعصابه وحاول التخلص من حراسه والانقضاض على ماكس كرامر والقضاء عليه .. ولو كنت أنا فقط الذي أثرت حقد كرامر ، لما سامحت نفسي عن مقتل توني ، لقد رسم كرامر صورتي وصورة توني فيذهنه ، وكأنما كان ينوي أن يقضي علينا في أول فرصة ممكنة . ويبدو أن ذاكرته من النوع اللاقط . ولكنني أعتقد أنه لولا اشتغالنا جميعاً بتجارة واحدة هي تجارة التحف والعاديات ، لما التقينا يوماً في هذا العالم الواسع ..

وصمت ريتشارد برهة قبل أن يستطرد قائلاً :

– لقد استطاع كرامر بعد الحرب أن يهرب من محاكمات نورمبرج وأن يختفي بضعة شهور ثم يظهر في فرنسا مدعياً أنه نمساوي لاجىء يدعى كاريل ويرفيل . وكذلك استطاع أن يهرب ثروة كبيرة من المال والمسروقات ، وأن

يفتتح متجراً كبيراً للتحف والعاديات في باريس ، فروع في ليون ومارسيليا — ويجب أن أذكر هنا أننا اكتشفنا في أوراقه اليوم أن .. أن لورين كانت على اتصال مباشر به عقب الحرب .

واستطرد ريتشارد بصوت هادىء فيه نبرات الرثاء :

— كان لها ماضيها الأسود .. وكانت السلطات ترتاب في أنهـا تعاونت مع الألمان وأنها تسببت في قتل جنديين فرنسيين . واستطاع كرامر أن يعاونها في تجنب نتائج هـــذا كله ، ولكنه احتفظ في خزانته بالوثائق والمستندات التي يمكن أن ترسل بها الى المقصلة في أي وقت .

وأطفأ ريتشارد سيجارته واستطرد يقول :

— ولما ظهرت أنا وتوني في أفق حياة كرامر .. كان هو قد بلغ من الثروة والمكانة ما يعز عليه أن يفقدهما بأي ثمن . لقد أصبح بعيداً عن الشبهات ، وأمكنه أن يجمع ثروة طائلة عن طريق صفقات غير مشروعة والاتجار في الممنوعات والمهربات ، وقد عثر رجال الشرطة على قائمة بأسماء جميع أعوانه في هذه العمليات ، كما ثبت من الوثائق التي كانت في خزانته أنه كان واحداً من أفراد المنظمة التي تعمل على اعادة الحكم الهتلري ، والنظام النازي ، الى ألمانيا ، حسناً .. بينما كان هو في أوج نجاحه واستقرار مكانته ، فوجىء برؤيتنا — توني وأنا — نقتحم عليه حياته الجديدة . اذ لاشك أنه أدرك أننا سوف نلتقي به يوماً ما ، مهما طال الزمن ، فقرر أن يقضي علينا قبـل أن نكشف أمره ونقضي عليه وندفع بعنقه الى المقصلة .

وقلت أنا :

— وما دور بول فاري في هذا كله !

فقال مارزدن :

– انه كان من أرباب السوابق .. وقد انتحل عشر شخصيات زائفة على الأقل . وكان كرامر يحتفظ في خزائنه بمستندات يمكن أن تؤدي بـــه .. أعني ببول فاري الى عشرين مقصلة ! .

وقال ريتشارد :

– الواضح أنه وعد بول فاري ولورين بتسليمها هذه المستندات مع مبلغ كبير اذا عملا على القضاء علي وعلى توني في وقت واحد ..

وسألت لويز قائلة :

– وهل كانت حقاً زوجة له !

– نعم .. تزوجا في عام ١٩٤٢ . وقد رأيت وثيقة زواجهما لدى محامي لورين ثم أعلنت السلطات الحربية أنه من المفقودين . وفي عام ١٩٤٥ اتصلت لورين بكرامر ولم يلبث أن ظهر بول فاري .. أو جيان بول واضطر – على نحو ما – أن يرضخ للأمر الواقع وأن يعمل لحساب كرامر .. ولما شاهدني هذا الألماني المتوحش مع توني في أحـــد المزادات . عهد الى بول فاري ولورين بالقضاء علي ..

وقال مارزدن عندئذ :

– وقد أتحت أنت لهما أكبر فرصة عنـدما وقعت في شرك لورين وتزوجتها !

فهز ريتشارد كتفيه وقال :

– هل تعتقد أنهما كانا سيكفان عن تنفيذ خطة قتلنا لو لم أتزوجها ؟ لا شك أنهما كانا سيلجآن إلى وسيلة اخرى . ان عزائي الوحيد الآن انها لم تكن يوماً ما زوجة شرعية لي .. و ...

وغامت عيناه قليلاً وهو يستطرد قائلاً :

– وكان بول فاري هو الذي قتل توني ، وضرب دافيد على رأسه .. وهو نفسه الذي دبر حادث سقوط سيارتي في الهاوية عند ذهابي الى دينتج .. ولما فشل في القضاء علي ، أخذ دافيد الى فرنسا – بواسطة لورين طبعاً – وهو يعلم انني لن أتردد في السفر الى فرنسا والبحث عن ابني ، وبذلك أقع بسهولة في أي كمين ينصبه لي مع أعوانه . وقد كان من الممكن ان ينجحوا تماماً لولا أمران..

وهنا قال دافيد في لهفة :

– ما هما يا أبي ؟

فنظر ريتشارد الى مارزدن وقال :

– براعة رجال اسكتلانديارد وعدم يأسهم من الوصول الى المجرم الحقيقي مهما كانت الظروف والأحوال .

وأشاح مارزدن بوجهه تواضعاً بينما قال دافيد :

– والأمر الثاني يا أبي ..

فنظر ريتشارد إلي وقال باسماً :

– عزيزتنا شاريتي . لقد شاء لها القدر أن تقوم – دون أن تدري – بدور هام في انقاذنا من براثن هذه العصابة .

فقلت بوجه مضطرم :

– ان أباك يا دافيد يبالغ في تصوير دوري .. انني أذكر اني كنت اخرج من نقرة لأقع في حفرة .. و

وضحك الجميع ..

ونظر دافيد فجأة الى أبيه ثم هتف قائلاً :

– أبي .. هل حقاً تنوي أن تتزوج من المسز سيلبورن ؟

وقال الوالد وهو يبتسم في عيني :

– ترى ما رأي المسز سيلبورن لو وجهت اليها هذا السؤال يا دافيد .

وقبل ان يقول دافيد شيئاً قلت :

– انني موافقة يا ريتشارد .

ونهض دافيد وأسرع يعانقني بحرارة وهو يقول :

– ما أسعدني .. ما أسعدني الآن .

وقال ريتشارد للساقي الذي أسرع على صوت التهاني :

– شمبانيا للجميع ..

– وهكذا كانت النهاية السعيدة للبطلين .. لقد عاشا في هناءة وسعادة حتى الممات .. !

وضحكنا جميعاً ..

وقال مارزدن :

– ومتى سيتم الزواج ؟

وأخرج ريتشارد أوراقاً من جيبه وقال :

– بعد عشرة أيام.. هذه هي المدة اللازمة لاتمام اجراءات الزواج في فرنسا لقد قمت باتخاذ أول خطوة في هذه الاجراءات في هذا الصباح.

وقالت لويز :

ـ ولكن .. متى تم هذا :

وضحك ريتشارد وهو ينظر إلي من فوق كأسه ، بينما قلت :

ـ في معبد ديانا .. ومع ذلك .. فانه حتى الآن لم يطلب يدي رسمياً ..

فهتف ريتشارد قائلاً في حرارة :

ـ شاريتي .. هل تقبلينني زوجاً ؟

ـ نعم ..

وصاح دافيد :

ـ لقد أصبح الزواج حقيقة واقعة أمام الشهود .. ان أبي لن يستطيع أن يتراجع الآن ! وسوف أراقب أنا الأمر ، ولن أترك له أية فرصة للتراجع ..

وضحكنا بابتهاج .. ونهضت لويز قائلة ، وهي تبتسم لنا جميعاً :

ـ انني أشكركم على هذه الجلسة اللطيفة ، وأرجو ألا أعوقكم عن أعمالكم وعن المباهج التي يدخرها القدر لكم .. ولكن هل تسمحون لي بصاحبة دافيد فترة ما بعد الظهر ؟

فقال ريتشارد :

ـ شكراً جزيلاً .. ولكن ألا يزعجك الكلب روميل ؟

ـ لا . بالعكس .. لقد أصبح روميل عزيزاً علينا جميعاً .

ووضع ريتشارد يده في يدي وقال :

ـ نستطيع الآن أن نمضي فترة ما بعد الظهر على انفراد .

* * *

كانت الشمس توشك على المغيب في اليوم التـــالي عندما كنت أسير مع ريتشارد في طريق تحف به الأشجار ، وتمتد على شاطىء البحر .

وكان ريتشارد يقول :

– ان لدينا على الأقل تسعة أيام ليزداد كل منا معرفة بالآخر قبـل أن نندم بعد فوات الأوان .. هل أنت واثقة من عواطفك نحوي ؟

– كل الثقة .

– ان كل ما أستطيع أن أفعله الآن هو أن أترك لك حرية اختيار المكان الذي نقضي فيه شهر العسل .

فقلت على الفور :

– ما رأيك في جزائر الذهب !

فنظر إلي بدهشة وقال :

– أين تقع هذه الجزائر ، في منطقة ألتيا تبول .

– لا .. ولكن لهذه الجزائر اسماً آخر .. انهـــا تسمى بوركويللوس .. ويمكنك الابحار إليها من ميناء هيريس .

– عظيم جداً .. لسوف تقضي بها أسبوعين .. وربما نعرج على جزيرة كورسيكا .

وقد وعد أصدقائي آل ديكستر بأن يستضيفوا دافيد حتى نعود ونصحبه الى انجلترا ..

– الى دينئج .

ورقصت السعادة في عينيه .. ولا شك أنهـــا كانت ترقص في عيني أنا أيضاً ..

تمت